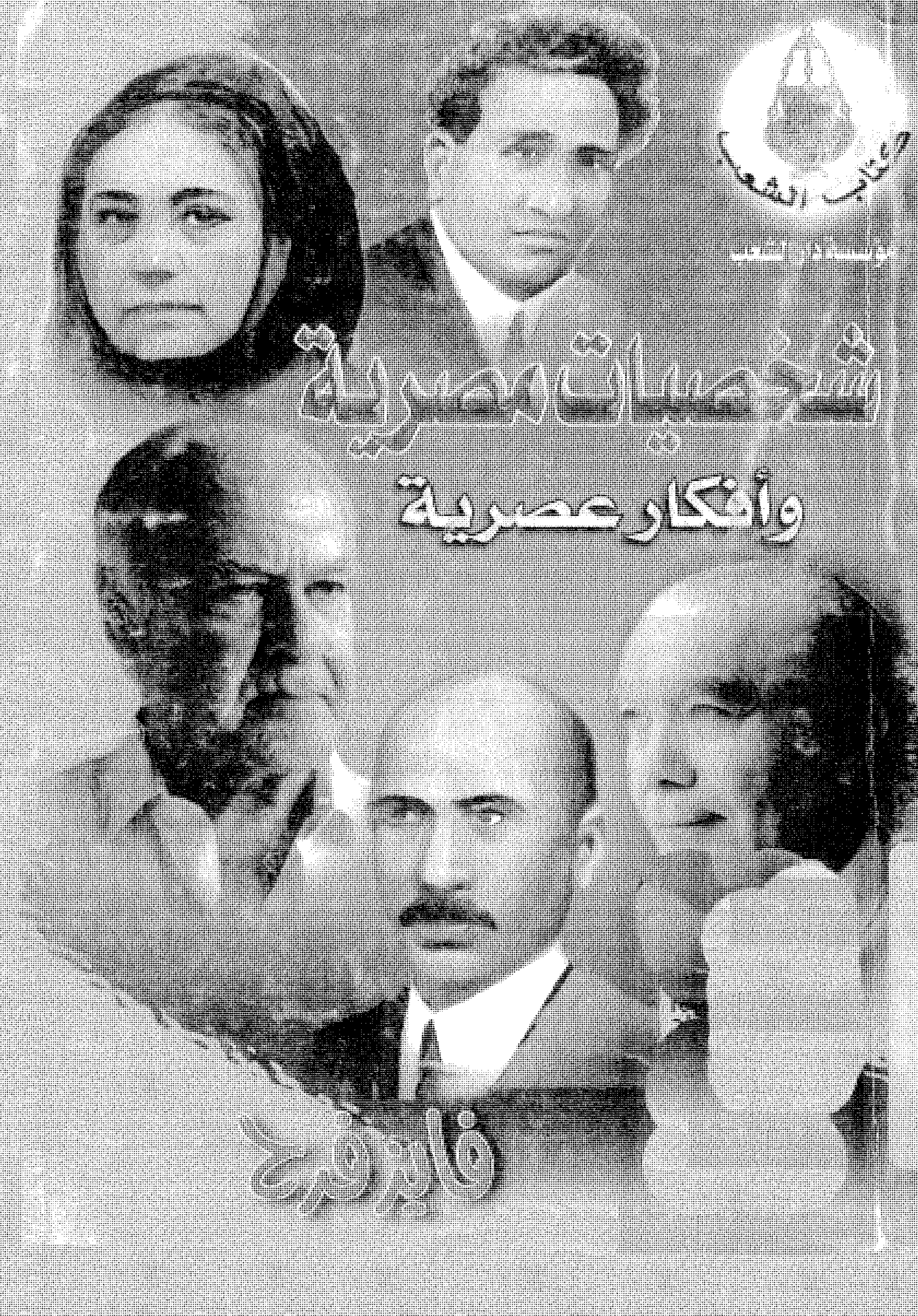

كتاب الشعب
مؤسسة دار الشعب
شخصيات مصرية
وأفكار عصرية



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

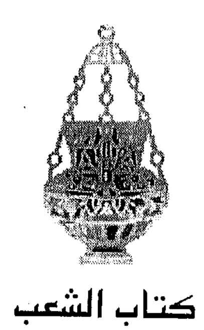
دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

■ رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير :



■ الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى ـ القاهرة .
■ قطاع النشر : ت : ٣٥٥١٥٩٩
■ الإدارة : ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٣٥٤٢٨٠٠ .
■ فاكس : ٣٥٤٤٨١١ ـ ص. ب ١٤ رقم بريدى ١١٥١٦ .



كتاب الشعب

شخصيات مصرية
وأفكار عصرية

بقلم

فايز فرح

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

الغلاف للفنان : أسامة نجيب



إلى روح شهيد مصر المفكر

الدكتور فرج فودة

الذى أبى أن تموت مصر.. فمات هو.

«فايز فرج»

مقـــــــدمة

كل بلاد الدنيا تعتز بأبنائها العلماء والمفكرين والأدباء والفنانين ، فهم قادة الرأى ، الذين يحركون الملايين فى طريق العمل الجاد والفكر المستنير ، والحياة الحرة الكريمة ، ومصر أم الحضارة منذ آلاف السنين ، أهدت العالم كله النظريات العلمية ، والأفكار العصرية ، والمذاهب الفنية ، ولها أن تعتز بجيشها الكبير فى شتى هذه المجالات ، وعلى مرّ العصور وحتى الآن .

ومع بداية القرن التاسع عشر ، واقترابنا من القرن الحادى والعشرين شهدت مصر مجموعة من قادة الفكر المستنيرين ، الذين حاولوا تطعيم حياتنا المصرية بأفكارهم العصرية حتى تعيش مصر حضارة القرن المعاصرة ، وتتمتع بأحدث أنواع التكنولوجيا ، والعادات والتقاليد الحضارية التى تهتم بالعقل والتعليم والفن ورسالته التربوية ، والتدين بغير تطرف ، واحترام المرأة كنصف المجتمع ، وإتاحة الفرصة لها فى التعليم والعمل ، بما لايعوقها عن واجبها كأم وزوجة وسيدة بيت .. واحترام الرأى والرأى الآخر ، واحترام القوانين التى هى أولى صفات الإنسان المتحضر .

وقد اخترت عشرة من هؤلاء ، رواد الفكر الذين لعبوا دورا هاما فى حياتنا فجعلوها أجمل وأكمل وأمثل . ومن الطبيعى أن يكون قادة الفكر فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن بالعشرات ، بل والمئات ولكن الكتابة عنهم يحتاج إلى موسوعة خاصة ، ومن هنا اخترت عشرة

مهمين لأعرض لحياتهم وأفكارهم التى أفادوا بها المجتمع المصرى ، من منا لا يعرف الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ؟ الذى سافر إلى باريس وعاد ليكتب لنا كتابه الفريد « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ويعبر عن اعجابه واستيائه بما رآه هناك ، ويحاول أن يطبق العادات الحسنة التى أعجبته فى هذا المجتمع الغريب عليه .

ومن منا لا يعترف بالدور التاريخى والوطنى الهام للشيخ الإمام محمد عبده ، رجل الدين المستنير الذى عرّفنا معنى القومية .. أما قاسم أمين فهو المحارب الجسور الذى تحمل الإهانة بعد دعوته الجريئة لتحرير المرأة من العبودية والتخلف الشديد التى كانت تعانى منهما .. الزعيم مصطفى كامل هو الشاب الذى وهب حياته لوطنه ، وأفنى شبابه من أجله .. السيدة هدى شعراوى رائدة المرأة ، بل تحرير المجتمع ككل لأن تحرير المرأة هو تحرير للمجتمع وللرجل أيضا ، وكانت ترسل البعثات للنساء والرجال إلى الخارج على نفقتها الخاصة لكى يعودوا بأحدث النظريات العلمية والأفكار العصرية لخدمة بلدهم .. الزعيم سعد زغلول تمتع بكل مقومات الزعامة واستغل مواهبه ومركزه فى صالح الشعب والوطن ، وعندما عاد من منفاه فى أوائل العشرينات خرجت مصر تستقبله استقبالا لا مثيل له حتى أن جريدة « التيمس » الانجليزية كتبت تقول : إن سعد زغلول اليوم هو أعظم رجل فى العالم . ووقف الخطباء يقولون إن سعد زغلول هو خالق الوطنية المصرية .. ولكن الزعيم الشعبى المتواضع رفض هذا الشرف وقال :

« لست أنا خالق الوطنية فى مصر ، إنهم محمد على وعمر مكرم ، والشيخ محمد عبده ، وأحمد عرابى ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وأنا واحد منهم ..» .

الفنان السيد درويش لم يكن مجرد مطرب وموسيقى ، مزيكاتى ، انما

كان فنانا بمعنى الكلمة ، عرف كيف يلهب مشاعر الجماهير ويحمسها عن طريق الأغنية والموسيقى الجادة ، وهو الذى جعل للأغنية رسالة ، كما اهتم بكلمات الأغنية فساعد فى كتابة أشهر نشيد يحفظه المصريون « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى » كذلك اشترك فى المظاهرات ضد الاحتلال وكان زعيما فنانا .. أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد هو الذى اهتم بمصر وأبناء مصر فى المقام الأول وقال عبارته الشهيرة « مصر للمصريين » .. الصحفى والفنان وعالم الآثار كمال الملاخ عشق مصر وعاش يقدم لنا كنوزها ، ويشرح لنا حضارتها الضاربة فى القدم فدفعنا إلى حب مصر والفخر بتاريخنا وببلدنا ، بل جعل العالم كله يعرف قيمة حضارة مصر ، عن طريق كتبه وأفلامه التسجيلية ، كذلك استطاع أن يجعل القاهرة محط أنظار كل العالم عندما أسس مهرجان القاهرة السينمائى الدولى .. الفنان الكبير صلاح طاهر هو مسك الختام ، وهو الشخصية الوحيدة التى ماتزال تحيا بيننا ، ومازال عطاؤها وفيرا فى مجال الحضارة والفن ، وهو شعلة نشاط وبؤرة ثقافة متنقلة ، ورائد من رواد التنوير المعاصرين .

إننا فى حاجة لقراءة حياة هذه الشخصيات وأفكارها العصرية التى وضعت مصر فى مكانتها التاريخية على الخريطة العالمية ، وبخاصة بعد الردة الحضارية المتخلفة التى أصابت مصر منذ السبعينات وحتى الآن ، لقد أراد الإرهابيون المتخلفون الهمجيون أن يعودوا بمصر إلى الوراء ، إلى عصور الجهل والتخلف والوحشية ، وعصر الحريم ، وحاولوا أن يحققوا أهدافهم الدنيئة بكل ما أوتوا من قوة ، وساعدهم الأعداء بالمال والسلاح ، فهدموا المنشآت وقتلوا الأبرياء وأحرقوا الكتب النافعة ، ونشروا الكتب الصفراء التى تُقَلب المجتمع على بعضه ، والتى تحوى حقائق خاطئة عن الدين والتدين ، ولكن الشعب المصرى المتحضر رفض أعمالهم ، وشجب تعاليمهم وردهم وهو أعزل من السلاح ، ردهم بشجاعته وشهامته

وبساطته ، وتحمل الموت فى سبيل مصر الحديثة المتحضرة التى تستعد لدخول القرن الحادى والعشرين .

إننا فى حاجة لقراءة أفكار الرواد حتى لا نسمح لمثل هؤلاء بإفساد حياتنا ، ومحاولة تحطيم حضارتنا ، وبث أفكارهم المسمومة فى مناهجنا التعليمية وبرامجنا التربوية والإذاعية والتليفزيونية .

إننا إذ نذكر هؤلاء الرواد وأفكارهم العصرية ، نذكر أيضا كل من قدم فكره السليم وتعاليمه التقدمية من أجل مصر ، وهنا نذكر الشهيد المفكر الكبير الدكتور فرج فوده الذى استشهد من أجل القضاء على الإرهاب ، والذى عاش سنواته الأخيرة يفند ادعاءاتهم ويثبت أخطاءهم ويسخر من دعواتهم الساذجة التى تريد أن تعود بنا إلى عصر الجهل والهمجية ..

تحية إلى روح الشهيد الدكتور فرج فودة الذى استشهد في سبيل أن تعيش مصر حضارة الربع الأخير من القرن العشرين ، ولست أعرف ماذا كان يكون حال مصر لو هناك خمسة فقط أو أقل مثل المناضل البطل فرج فودة ؟

فـــايز فـــرح

***



□ العفة ليست نتيجة الحجاب
بل نتيجة التربية الجيدة والتعود
على محبة واحـــد دون غيره
وعدم التشريك فى المحبـــة .

رفاعة رافع الطهطاوى
رائد عصر التنوير

(١٨٠١م - ١٨٧٣م)

شـاب وقور ، وشيخ جليل ، جاء إلى القاهرة من قلب الصعيد ، ليدرس فى الأزهر الشريف ، وكان من حسن حظه أن يلتقى مع أستاذ أزهرى متفتح يكتشف مواهبه واستعداده ويُعرفه أن الإسلام دين اليسر لاالعسر ، وأنه يدفع الإنسان لطلب العلم ، ولايُحرم التمتع بشتى الفنون على اختلافها ، مادامت بعيدة عن الإسفاف والخلاعة .. واستطاع الشيخ حسن العطار أن يعد هذا الشاب إعدادا جيداً ، دينيا وفكريا وأدبيا وحضاريا ، ثم أرسله بعد ذلك الى باريس عاصمة النور ، ليكون مرافقا وإماما لأول بعثة يرسلها محمد على للدراسة فى فرنسا ، ويعود الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى من فرنسا حاملا لواء الحضارة ، ومشعل التنوير ليصبح رائدا من رواد التقدم ، ويحاول أن ينقل إلى مصر والشرق التجارب الحضارية والعلمية التى عاشها فى فرنسا ، مع الاحتفاظ بالتقاليد والقيم الدينية والأخلاقية التى يقوم على أساسها الدين .

ولد رفاعة فى السنة الأولى من بداية القرن التاسع عشر ١٥ اكتوبر سنة ١٨٠١ فى مدينة طهطا التابعة لمحافظة سوهاج ، واضطر منذ حداثته إلى مغادرة مسقط رأسه مع أبيه بحثا عن لقمة العيش فى فرشوط وقنا ، بعد الضائقة المالية التى أصابت الأسرة فى طهطا . ولاشك أن السفر والتنقل من قرية إلى أخرى منحت هذا الصبى خبرة حياتية فعرف معنى السفر ومقابلة الناس والبحث عن مكان للرزق . وركوب الحيوان والنيل كوسيلة مواصلات والمشى .

عندما بلغ رفاعة السادسة عشرة من عمره ، أى سنة ١٨١٧، شاء قدره السعيد أن يصل إلى القاهرة ، ويلتحق بالأزهر للدراسة ، أما أستاذه فهو صاحب الفضل الكبير فى تشجيعه على الدراسة ، واكتشاف مواهبه ، وإعداده الإعداد الجيد ، لاليكون مجرد شيخ ناجح فى عمله وحياته وحسب ، بل ليكون قائدا للفكر ورائدا للحضارة بعد ذلك .. إنه الشيخ

حسن العطار ، الشيخ المستنير ، الرحالة الأديب ، المحب للعلم ، الواسع الفكر ، الذى يحترم الآخرين مهما اختلف معهم ، والذى اهتم فى تدريسه بمنهج التفكير بدلا من التحفيظ . تتلمذ رفاعة على يد هذا الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار ، فشجعه على العلم بجانب الدين ، وعلى القراءة فى شتى الموضوعات ، وأعمال الفكر فى كل مايقرأ ، والاضطلاع على حياة الآخرين والاستفادة بما ينفع ، حتى شب رفاعة شابا عصريا متفتحا ، ورجل دين مستنير ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، كان قد أصبح مدرسا فى الأزهر ، وإماما لبعض فرق الجيش ، وأملا للشيخ حسن العطار فى تخريج أجيال جديدة من الأزهر أكثر علما وتفتحا وقدرة على تأدية الرسالة فى ربيع سنة ١٨٢٦ انتهز محمد على فرصة مرور السفينة« لاترويت » الحربية الفرنسية ، فطلب من قبطانها أن يحمل معه إلى مرسيليا أربعين شابا للدراسة فى باريس ، واهتم بأن يكون هؤلاء الشباب من الأتراك والشراكة والأرمن والأكراد ، ماعدا المصريين ، فقد كان لايثق بهم .

عندما عرف الشيخ حسن العطار بخبر هذه البعثة أيقن أن أهم طالب تتوافر فيه كل الشروط والصفات هو الشيخ رفاعة الطهطاوى تلميذه النجيب ، ولكن كيف يمكن ترشيحه والأمر بيد الوالى محمد على ، وهو لايرشح المصريين ؟

وأخذ الشيخ حسن العطار يفكر ويفكر حتى اهتدى إلى فكرة معينة ، فذهب إلى الوالى وعرضها عليه قال : « ..إن البعثة تحتاج إلى إمام يسهر على مصلحة الطلبة ويعرفهم بشئون دينهم فى تلك البلاد البعيدة ..» هنا لم يستطع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح العملى البناء ، واستطاع الشيخ حسن أن يعطى هذه الفرصة الذهبية لتلميذه رفاعة الذى توسم فيه خيرا .

هكذا انضم رفاعة للبعثة المسافرة إلى باريس ، ولم ينضم كطالب دارس ، بل مرافق للبعثة ، فلم يكن مطلوبا منه الدراسة أو الكتابة ، بل مجرد الإشراف الدينى على أعضاء البعثة ..

إذا كان الشيخ حسن العطار قد اكتشف مواهب واستعداد الشيخ رفاعة فى القاهرة ، فإن مدير البعثة فى باريس« فرانسوا جومار » قد قام بنفس الدور ، فوجهه إلى الإفادة من رحلته بدراسة اللغة الفرنسية أولا وترجمة مبادىء العلوم المختلفة ، وإعداد كتاب عن مشاهداته فى باريس إن أمكن .. وهذا إن دل على شىء إنما يدل على أن شخصية الشيخ رفاعة كانت شخصية واعدة معبرة عن نفسها طموحة مثقفة ، يجد كل من يعرفها ويختلط بها روح العلم والأدب فيها فيشجعها على المزيد . فى باريس لم يضيع الشيخ رفاعة وقته ، فبجانب عمله الرئيسى أخذ يدرس المجتمع الفرنسى ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وكانت طريقه للغوص فى قاع المجتمع ، ومعرفة كل شىء عنه ، فقرأ مؤلفات « جان جاك روسو » و « فولتير » و« مونتسكيو » و« دىينج » الذى ترجم كتابه« لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها » إلى اللغة العربية ، كذلك اهتم رفاعة بقراءة الصحف والمجلات ، وكتب الرحلات ، والجغرافية والتاريخ والفلسفات ، هذا بجانب تأمله فى هذا المجتمع المتحرر ، ومقارنته بما يراه فى بلاده مصر ، واهتم بدراسة المرأة وعلاقتها بالرجل ، وبالحرية والديمقراطية والبيوت وتشييدها ، وداخل البيوت ، والطعام من ناحية الكيف والكم ، وطريقة تناوله وتقديمه ، ونظافة باريس ، الدستور الفرنسى واحترام الإنسان ، والشارع العام وسيارات الرش التى أعجب بها كثيرا ، وسيارات النقل العام ، كما اهتم بارتياد المكتبات العامة والخاصة ، ومتاحف النبات والحيوان والجيولوجيا ، ودور السينما والمسرح واللهو ، والأكاديميات والكليات والمدارس والمعاهد والفنادق (والبنسيونات) ،

وعلى الرغم من انبهار الشيخ رفاعة بالمجتمع الفرنسى وكل مافيه ، إلا أنه انتقد العادات والتقاليد التى لم ترقه ، أو التي كانت تخالف تعاليم الدين ، فهو لم ينس نفسه كشيخ من شيوخ الأزهر ، وهو متفتح فى حدود مايسمح به الدين من يسر وعلم ومتعة روحية مفيدة .

لم ينس رفاعة نصيحة أستاذيه الشيخ حسن العطار فى مصر ، والفرنسى« فرانسوا جومار » رئيس البعثة فى فرنسا بأن يستفيد من رحلته هذه علميا وأدبيا وثقافيا وأن يكتب كتابا عن مشاهداته وانطباعاته عنها ، وكان يجلس للكتابة بعد أن ينتهى من عمله الرسمى ومن دراسته وقراءاته ، وبعد خمس سنوات هى مدة البعثة كان رفاعة قد ألف كتابا عن باريس والحياة فيها بكل دقائقها وملامحها وشعبها وحضارتها وعاداتها وتقاليدها ومبانيها وشوارعها ودستورها وميزاتها وسلبياتها ، صورة صادقة عن باريس كما رآها وعاش فيها الشيخ رفاعة ضمها كتابه المهم الذى اختار له عنوانين : الأول هو« تخليص الابريز فى تلخيص باريز ..» والثانى هو« الديوان النفيس بايوان باريس ..» وقد اشتهر الكتاب باسمه الأول ، ووجد صدى عظيما فى مصر وكل البلاد الشرقية والإسلامية ، وكان أول اتصال بين الشرق والغرب فى العصر الحديث ، وسنعود للحديث عنه لأهميته .

أمضى رفاعة فى باريس خمس سنوات حافلة بالعمل عامرة بالاطلاع والتأمل ، وعاد إلى مصر سنة ١٨٣١ ، عاد رجلا جديدا متحضرا حاملا مشعل التنوير ، مصمما على إصلاح المجتمع ، وتعليم الشعب ، واقتلاع العادات القديمة البالية ، وبث روح الحضارة الخالصة التى تجعل الحياة بسيطة سعيدة ، فأنشأ المدارس ، ومنها مدرسة الألسن التى كان ناظرها ، وقام بدور هام فى إنشاء صحيفة الوقائع المصرية وشجع على حركة الترجمة ، وتكوين مجموعة من المترجمين من تلاميذه لإحياء الترجمة ، وتغذية المكتبة

العربية بكل ماهو مفيد ونافع ، وأصبح مديرا لقلم الترجمة الذى أنشأه الوالى ، وقام بترجمة أمهات الكتب الجغرافية والتاريخية والعلمية والثقافية بعامة ، كذلك كان يكتب ويخطب وينشر الكتب فى شتى ألوان العلوم والفنون ، ومن مؤلفاته « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية .. » و « المرشد الأمين للبنات والبنين » ويعتبر هذا الكتاب الأول من نوعه فى التربية فى العصر الحديث فى مصر وكان رفاعة عضوا فى لجنة تنظيم التعليم ، وقد نادى فى سنة ١٨٣٦ بضرورة تعليم البنات المصريات شتى العلوم والفنون والآداب ، لأنه لافرق إنسانيا بين الرجل والمرأة .. ظل رفاعة يلعب دور المعلم والرائد والموجه وأستاذ الجيل بشجاعة دون خوف من محمد على ورجاله التقليديين المتزمتين ، وحتى عندما نفاه عباس إلى السودان واصل مشواره مع الثقافة والتنوير دون ملل أو كلل ، ومات رفاعة سنة ١٨٧٣ عن عمر يقارب اثنتين وسبعين سنة ، خدم فيها مصر خدمة جليلة ، واهتم بأن يرتقى بأهم شىء فى الوجود ، وهو عقل الإنسان المصرى ، ولذلك يذكره التاريخ بفخر كشيخ جليل يعرف الله ويؤمن بالتطور .

عندما يذكر اسم رفاعة الطهطاوى يذكر على الفور كتابه المهم والتاريخى والأول فى أدب الرحلات فى مصر فى العصر الحديث « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » هذا الكتاب الذى لعب دورا كبيرا فى الاتصال الفكرى والثقافى بين الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر، والذى أدى إلى التنوير فى مصر وبث روح الحضارة والرقى عند المصريين ، إنه خلاصة تجربة خمس سنوات عاشها رفاعة الطهطاوى فى باريس ، وهو يقدم لنا ما أعجبه ومالم يعجبه ، بل ينادى بأن تطبق التجارب الناجحة والتى لاتتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية فى مصر حتى نستفيد منها ، وقد انتهى من تأليف الكتاب وهو فى باريس، بل وقدمه فى اكتوبر سنة ١٨٣٠ إلى اللجنة التى ناقشته فى امتحانه النهائى للبعثة ، كأنه رسالة

تكميلية إلى جانب اثنى عشر موضوعا مترجما ، وصدرت الطبعة الأولى فى بولاق سنة ١٨٣٤، والطبعة الثانية فى بولاق أيضا سنة ١٨٤٩ ، أما الطبعة الثالثة فقد صدرت سنة ١٩٠٥ بعد وفاة رفاعة ، ثم توالت الطبعات فى مصر والعالم العربى ، كما ترجم الكتاب مع بداية نشره إلى اللغة التركية وغيرها .

وكتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ليس مجرد كتاب مشاهدات مسافر سريعة ، أو حكايات للتسلية ، بل هو كتاب حياة متحضرة ، وأفكار جريئة كان يمكن أن توصل صاحبها إلى السجن والنفى فى عصر الحريم والتزمت والرجال المطربشين ، ولعل رفاعة كان يشعر بالثورة التى يمكن أن تقوم ضده بعد نشر الكتاب ، وبخاصة من رجال الدين ، وحتى يحمى نفسه طلب من شيخ الأزهر أستاذه الجليل حسن العطار أن يكتب له كلمة كمقدمة للكتاب ، فكتب الأستاذ كلمة أثنى فيها على الكتاب وقال أنه يحرض العاقل على الأسفار ، والتنقل فى الأمصار حتى يزداد بذلك علما يقينا .

أما القضايا التى يفجرها الكتاب فهى كثيرة وحساسة ، من أهمها قضية تعليم المرأة وعملها وشخصيتها الإنسانية . يقول رفاعة فى كتابه :«.. وعادة نساء هذه البلاد : كشف الوجه والرأس ، والنحر وماتحته ، والقفا ، وماتحته ، واليدين إلى قرب المنكبين .. والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهى للرجال ، فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها ، وعلى مايعمرها .. وكان أول ماوقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة ، دخلناها ، فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة ، وقدامها دواة وريش وقائمة .. وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات - يقصد الفطائر - فاذا طلب الإنسان شيئاطلبه الصبيان من القهوجية ، وهى تأمر بإحضاره له ، وتكتبه فى دفترها ، وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن ،

وتبعثها مع الصبى للطالب ، حين يريد الدفع .. ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم .. ومما قيل أن باريس جنة النساء ، وأعراف الرجال وجحيم الخيل ، وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو جمالهن .. ومن الغريب أن الرجال عندهم عبيد النساء ، يثقون بهن ، ويدللونهن ، ثم يلجأون فى خيانة العرض إلى ساحة القضاء بدلا من أن يثأروا ثأرا شخصيا ... يتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة - بمعنى التظرف - لامن الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياة ، بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس فإنه نط مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبدا .. العفة ليست نتيجة الحجاب بل نتيجة التربية الجيدة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين ..»

من هذه الفقرات السابقة التى نشرها رفاعة فى كتابه نستطيع أن نعرف إعجابه بالمرأة الفرنسية وتحررها ومساواتها بالرجل ، وأمنياته فى أن يرى المرأة المصرية هكذا متعلمة متحررة ، تعمل بجانب الرجل ، وتتساوى معه فى الحقوق والواجبات ، تحافظ على نفسها وعفتها نتيجة التربية الجيدة لا لمجرد المظهر فى ملابسها وحسب ، تلقى كل الحب والاحترام من الرجل ، إنها المرأة الجديدة التى يجب أن تتخلص من عاداتها وتقاليدها القديمة البالية ، لتصبح نصف المجتمع ، إنها أول صيحة لتحرير المرأة فى مصر والشرق يطلقها شيخ جليل متفتح هو رفاعة رافع الطهطاوى .

القضيــة الثانية التى يفجــرها كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » هى قضية حب العمل واحترامه .. يقول رفاعة فى وصف أهل

باريس : « .. ومن أوصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم، وعدم إهمالهم أشغالهم أبدا ، فانهم لايكلون من الأشغال سواء الغنى والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول: إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ..»

إنه ينادى بحب العمل واحترامه وإتقانه الذى يؤدى إلى تقدم الأمم .

القضية الثالثة فى الكتاب هى قضية حقوق الإنسان واحترامه ونظرة مجتمعه إليه .. يقول رفاعة تحت عنوان « الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم » :

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة .

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل إنسان حسب ثروته .

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت .

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له حريتها ، فلا يتعرض له إنسان إلا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل إنسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يجب لايشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عبادته .

المادة السادسة : لايمنع إنسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ، ويطبعه بشرط أن لايضر مافى القانون فإذا ضر أزيل .

المادة السابعة : سائر الأملاك والأراضى حرم، فلا يتعدى أحد على ملك آخر ..» .

هذه بعض بنود قانون الحكم فى فرنسا أثناء زيارة رفاعة لها من سنة ١٨٢٦ إلى ١٨٣٠ ، وقد ذكرها فى كتابه إعجابا بها وبحرية الإنسان السياسية والدينية والعدل الذى هو أساس الحكم ، وهو يذكر أسباب كتابته لهذا القانون فيقول :«.. فلنذكره لك لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران ..»

وفى موضوع آخر يتحدث عن الجبايات والضرائب ويبدى إعجابه بها فيقول :

« ومدة إقامتى فى باريس لم أسمع أحداً يشكو من المكوس و « الفرد » والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون ، بحيث أنها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى، وتنفع بيت مالهم، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة ..» إنه درس حقيقى فى المواطنة وحرية الإنسان سياسيا ودينيا وحقه فى الوصول لأعلى المناصب مادام مؤهلا لذلك ، وحقه فى التمتع بالأمن والأمان على نفسه وأولاده وأملاكه ، وهذا الكلام يعتبر ثورة إبان تلك الفترة التاريخية ، ولكن رفاعة رائد التنوير وجد أن من واجبه نقل هذه الأفكار الثورية إلى بلاده حتى يعرف كل مواطن ماله وماعليه ، وينفض عنه غبار البلادة والكسل والعبودية والظلم .

القضية الرابعة : هى قضية النظافة وارتباطها بالصحة والحضارة ، يقول رفاعة :

« .. ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ .. وكما أن باريس نظيفة فهى خلية (أى خالية) أيضاً من السميات ، بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن إنساناً فيها لدغته عقرب أبداً ، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائماً مفرحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضعاً عظيماً يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات - أى الضلف - الشبابيك دائماً من « القزاز » حتى إذا أغلقت فإن النور لا يحجب أصلاً ، وفوقها دائماً الستائر ، للغنى والفقير ، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس ..» .

وفى موضع آخر من الكتاب يتحدث رفاعة الطهطاوى عن عادات الطعام والشراب ونظافتها فيقول :

« .. وعادة الفرنساوية الأكل فى أطباق كالأطباق العجمية أو الصينية ، لا فى آنية نحاس أبداً ، ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة وسكيناً وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة أن لا يمس الإنسان الشيء بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الإنسان قدح فيصب فيه ما يشربه من (قزازة) عظيمة موضوعة على (السفرة) ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح آخر ..

وأوانى الشرب دائماً من البلور والزجاج ، وعلى السفرة عدة أوانى صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل إلى الآخر ..

وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جداً ، وابتداء المائدة عندهم (الشوربة) واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب فى الشراب عندهم

النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغالب خصوصاً لأكابر الناس ، أن يشرب من النبيذ قدرا لا يحصل به السكر أصلاً فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل ، وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئاً يسيراً من العرقى ، ثم إنهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيراً فى أشعارهم ، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلاً ..»

فى الطبعة الأولى من الكتاب ، أى سنة ١٨٣٤ كتب رفاعة عن عربات الرش فى باريس وكيف أنها تساعد على نظافة شوارع باريس ، وتمنى لو استخدمت هذه العربات فى رش شوارع القاهرة ، وعندما صدرت الطبعة الثانية من الكتاب سنة ١٨٤٩، كانت هذه العربات تنظف القاهرة فعلاً ، فكتب فى آخر تلك الفقرة بين قوسين :

« .. قد صار الآن جل ذلك بمصر ..»

وحديث رفاعة عن قضية النظافة لا يحتاج إلى تعليق .

وترتبط قضية النظافة بالصحة العامة للأفراد ، ويخصص رفاعة الفصل التاسع من كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريس » فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية فيقول فى المادة الخامسة : وصايا عامة على الصحة :

« .. اتخذ القناعة فى الأكل ، فمن لم يقنع لا يشبع بل يهلك نفسه . قيل :

من أرخى على الطعام طويل عنانه ، حفر مقبرته بحدة أسنانه ، لا تأكل دون مرتين فى اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمساً .

لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات أو سبع ، وللضعيف والصغير أطول من ذلك . تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم .. النظافة نصف الصحة ، فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع .

لا تمضغ الدخان ، ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعفة على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم ، وينتن النفس ، وتسود الأسنان ، وتفسد ، وقد شوهد أن كثيراً من الناس اعترته الحماقة بالإكثار من شرب الدخان أو شم النشوق .

إياك والانهماك على تعاطى الخمور والمسكرات سيما أيام الصوم وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى أدنى زمن ، ويعقبها وهن ..» .

إنها روشته للصحة والوقاية من الأمراض يكتبها لنا رفاعة الطهطاوى فى كتابه عن باريس .

والقضايا الأخرى التى يفجرها الكتاب كثيرة ومهمة ، مثل قضية التعليم ، والاهتمام بالعلوم والفنون وتصنيفها ، وقضية الديمقراطية والحرية والثورة على الفساد ، وضرورة الاهتمام باللغات والترجمة والمنطق والفلسفة . قضايا كثيرة لا يمكن تناولها فى هذا الفصل الصغير عن رفاعة رافع الطهطاوى الشيخ الوقور ورائد التنوير فى مصر الحديثة ، ومع أن الكتاب صدر منذ ١٦٤ سنة إلا أننا نحتاج أن نقرأه مرة ومرات لننهل من فكره وعلمه وشجاعته ، ونعيد التفكير فى مشاكلنا كلها ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين .





■ لم يبق لى إلا همٌ واحد وهو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس ، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد .

الشيخ محمد عبده
معنى القومية

(١٨٤٩ م - ١٩٠٥ م)

لاشك أن شخصية المدرس ، ومناهج وطريقة التدريس لها أثرها البالغ والمهم فى إقبال التلاميذ على العلم والدراسة أو عدم إقبالهم ، وانصرافهم إلى أعمال أخرى ، فكلما كان المدرس متمكنا من علمه ، محبا له ، شغوفا به ، كلما نقل هذا الشعور الجميل إلى تلاميذه فيقبلون على الدراسة وتلقى العلم بحب وسعادة ، ومناهج وطريقة التدريس لها أهميتها أيضا ، فكلما كانت تتفق وتتواكب مع سن التلاميذ كلما أقبلوا عليها ، ووجدوا فيها ما يشبع هواياتهم ويصقل شخصياتهم ، ويكتشف مواهبهم واستعدادهم .

هذه قضية تعليمية هامة ، يجب أن يهتم بها كل من يتصدى للعملية التعليمية .

والشيخ محمد عبده المفكر الحر ، والرجل الوطنى ، الشيخ الذى يعرف دينه جيدا دون تعصب أو تطرف ، تعرض فى بداية حياته التعليمية إلى حادث جعله يصمم على ترك التعليم والانصراف إلى الزراعة ، أو أى عمل آخر ، ولولا خال أبيه الشيخ درويش خضر ، الذى عالج الموقف ، وبث فيه حب العلم وعشق المعرفة ، لولا هذا لخسرت مصر والعالم الإسلامى ذلك المفكر الحر ، رجل التعليم والتنوير والوطنية والإصلاح .

ولد محمد عبده سنة ١٢٦٦ هجرية ١١ يوليو سنة ١٨٤٩ ميلادية فى قرية « محلة نصر » مركز شبراخيت مديرية البحيرة ، من أبوين فاضلين ، الأب عبده حسن خير الله ، الذى اشتهر بإكرام الغرباء واحترام الضيوف ، الأم جنينة بنت عثمان من مديرية أسيوط بصعيد مصر ، وعرف عنها مساعدة المساكين والفقراء والعطف على الضعفاء .

تعلم الطفل محمد القراءة والكتابة فى بيت أبيه ، ثم أرسله والده إلى دار حفظ القرآن ، فحفظه جميعا بعد سنتين ، وكان عمره اثنتى عشرة سنة ، ويقول الشيخ فى سيرته الذاتية :

« .. تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة .. وبعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد . وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية ١٨٦٢ ميلادية ..» .

فى المسجد الأحمدى درس محمد عبده ، التلميذ الصغير ، القرآن وتعرف على فنون التجويد ، ولكنه لم يستوعب شرح الشيوخ والفقهاء على (الأجرومية)[١] وكان يفاجأ باصطلاحات نحوية فقهية صعبة الفهم ، ولما تكرر ذلك هرب من الدرس ، وقرر أن يبتعد عن العلم ، مادام لا يفهمه وقال لأخيه :

« .. لقد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على إلا أن أعود إلى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى ..»

عاد محمد عبده إلى قريته ، هربا من العلم الذى لا يفهمه ، فقد كان المنهج أكبر من سنه وفهمه ، فلم يستوعب ، لكن والده لم يعجبه الحال فهو يريد لابنه العلم والتفوق ، لا مجرد أن يكون موظفا صغيراً يعمل

---

(١) الأجرومية : كتاب فى النحو العربى صاحبه هو « ابن أجروم » ويطلق هذا الاسم مجازا على كل كتاب فى قواعد اللغة العربية .

فى مجال الزراعة ، ومن ثم قرر أن يعود ابنه إلى المسجد الأحمدى لمواصلة الدراسة ، فأرسله مع أحد أقاربه على فرس ليرافقه إلى محطة إيتاى البارود حيث يستقل القطار إلى طنطا ، ولما كان اليوم شديد الحرارة ، طلب الفتى محمد عبده أن يستريح فى قرية قريبة على الطريق ، وهى قرية كنيسة أورين ، التي يقطن فيها بعض أقاربه ، وهناك فى هذه القرية لم يسترح محمد ساعة أو ساعتين ، أو يوم أو يومين ، وإنما أقام فيها خمسة عشر يوما ، حدث خلالها مالم يكن فى الحسبان ، فقد تغير حاله من كراهية شديدة للدراسة إلى حب وشغف بها وبالعلم والدين والفن والرياضة ، رغبة عارمة للعلم والدراسة بعد النفور والملالة ، أما سبب ذلك فهو لقاء الفتى محمد عبده بأحد أخوال والده الشيخ درويش خضر ، وهو رجل متصوف واسع الأفق ، قام بعدة أسفار ، وتعرف على الصوفى الكبير السيد محمد المدنى ونهل من علمه وأدبه وثقافته .. استطاع الشيخ درويش أن يقترب من عقل محمد عبده ، وأن يحببه فى العلم والدراسة ، ويمحو الأثر السيء من الصدمة الأولى فى الدراسة ، وعدم الفهم ، وشرح له الإسلام وأساليب تعليمه المثمر ، وشجعه على قراءة كتاب رسائل السيد محمد المدنى إلى بعض مريديه ، وهى رسائل تحتوى على معلومات عن الصوفية ومعارفهم وأخلاقهم وفلسفتهم .

يقول الشيخ محمد عبده عن الشيخ درويش خضر :

« .. فى اليوم السابع سألت الشيخ :

ماهى طريقتكم ؟

فقال : طريقتنا الإسلام ..

فقلت : أو ليس كل هؤلاء بمسلمين ؟

قال : ولو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب ..

هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ماكان عندى من المتاع القديم .. متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأنا مسلمون ناجون ، وإن كنا فى غمرة ساهية ..

ولم تمض علىّ بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد .. ولم يبق لى إلا هم واحد هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس ، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد ..» .

هكذا أقبل الشيخ محمد عبده على الدراسة وحب المعرفة وعشق العلم ، ولم يتركه أستاذه الشيخ درويش بعد ذلك ، بل كان يلتقى به بعد أن التحق بالأزهر بالقاهرة خلال عطلة الصيف لمدة شهرين تقريبا ، فى قرية محلة نصر ، يناقشه فى دراسته وقراءاته ، وشجعه على ألا يكتفى بدراسة علوم الدين وحسب ، وجعله يتعلم المنطق والفلسفة والحساب والهندسة .

على الرغم من إقبال شيخنا محمد عبده على العلم والدراسة إلا أنه لم ينس الحادث الذى تعرض له فى بداية تعليمه ، وهروبه من المسجد الأحمدى لصعوبة المنهج ، وعدم قدرة المدرس على شرح المادة لتلاميذه ، وكثرة الاصطلاحات غير المفهومة ، فكتب فى مذكراته :

« .. فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر ، وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل فى التعليم سبيل

إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لايعرفه دون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم .. غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى أحلام الأطفال ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه ..» .

ظل الشيخ محمد عبده يتلقى العلم بالأزهر حتى جاء إلى مصر المصلح الكبير السيد جمال الدين الأفغانى (مارس ١٨٧١) ووجد فى نفسه رغبة لمقابلته ، فأفصح عن ذلك لأستاذه الشيخ حسن الطويل ، الذى اصطحبه فى زيارة للأفغانى .

انبهر الشاب الصغير محمد عبده بالمصلح الكبير جمال الدين الأفغانى ، واستمع إلى أحاديثه الخلابة فى التصوف والتفسير وأخذ يلازمه بعد ذلك فى كل مكان ، ويحضر دروسه فى السياسة والرياضة والأخلاق والفلسفة ، وكان من الطبيعى أن يقف المتزمتون والتقليديون من رجال الأزهر ضد تعاليم جمال الدين الأفغانى المصلح الكبير ، ثم ضد تلميذه الشيخ محمد عبده ، وزعموا أن تلقى العلوم والفلسفة يؤدى إلى زعزعة الإيمان بالله والعقائد الصحيحة ، وعندما عاد الشيخ محمد عبده إلى أستاذه القديم الشيخ درويش خضر يسأله فى هذا الموضوع قال :

« .. إن الله هو العليم الحكيم ، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل .. وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شىء من العلم ممقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل محمود لديه ..» .

لم يسلم الشيخ محمد عبده من جماعة المتزمتين التقليديين فأخذوا يتعقبونه ، وجاءتهم الفرصة وهو طالب بشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ ، فلم يمنحوها له إلا بعد مناقشات طويلة وأسئلة صعبة من غالبية الممتحنين ، وفى النهاية منحوها له من الدرجة الثانية .. ولم يقدر لهذا الإجحاف العلمى أن يصحح إلا قبل وفاة محمد عبده بعام فقط ، أى سنة ١٩٠٤ ، إذ أرسلت إليه مشيخة الأزهر قرارا من مجلس إدارته يتضمن نقله إلى الدرجة الأولى .

عمل الشيخ محمد عبده بعد حصوله على العالمية مدرسا فى الأزهر ، ثم أصبح أستاذاً سنة ١٨٧٩ للتاريخ فى مدرسة دار العلوم ثم أستاذا للأدب فى مدرسة الألسن ، ولم يكن مجرد أستاذاً يلقى المحاضرات فى موضوع معين ، وإنما كان يعتمد فى شرحه على ذكر أسباب تقدم الأمم وتدهورها ، ويحلل النظريات المختلفة ، ويشرك تلاميذه فى المناقشة والتحليل ، ويدفعهم على التفكير ، وكان أول من يهتم بتدريس ابن خلدون فى مصر .

لاشك أن الشيخ محمد عبده استفاد الكثير من صداقته للمصلح جمال الدين الأفغانى ، فقد مكث هذا المصلح العظيم حوالى ثمانى سنوات فى مصر [١٨٧١ — ١٨٧٩] رافقه شيخنا كالظل ، واستفاد بآرائه وأفكاره المتقدمة ، وكان أهمها :

* الدفاع عن الإنسان بصفته أسمى المخلوقات ، وتوعيته بوظيفته الاجتماعية ، وتبصيره بمسئولياته إزاء نفسه وغيره .

* الدعوة إلى تحكيم العقل بصفته أعلى ما عند الإنسان من صفات وحضه بالتزود بالمعارف والعلوم .

* مقاومة الاستبداد بصفته معطلا لحركة الإنسان على الأرض وقاتلا لملكات العقل .

* رفض التدخل الأجنبى فى جميع أشكاله .

* الإيمان بضرورة الوحدة الإسلامية ، ومحاربة التفرق والتعصب ، والعمل على قيام الجامعة الإسلامية .

هذه كانت دعوة جمال الدين الأفغانى فى مصر ، كما لخصها الدكتور على شلش فى كتابه « جمال الدين الأفغانى » ، وهى الدعوة التى آمن بها تلاميذه ، عبد الله النديم ، سعد زغلول ، محمود سامى البارودى ، إبراهيم المويلحى ، حفنى ناصف ، أديب إسحق وغيرهم ، وكان على رأس هذه القائمة الشيخ محمد عبده ، وكانوا جميعا من دعاة التنوير .

وقد شجع الأفغانى تلاميذه على إصدار الصحف ، حتى ينشر أفكاره ، وآراء تلاميذه ، فأصدر أديب إسحق ، جريدة مصر ، التى ساهم الأفغانى ومحمد عبده بالكتابة لها ، واهتم الشيخ محمد عبده بالوقائع المصرية ، التى أشرف على تحريرها ، وشجع بدوره تلميذه رشيد رضا على إصدار جريدة « المنار » وأصدر إبراهيم سراج صحيفتى « الحجاز والفسطاط .. » ودعا الأفغانى إلى الثورة على الظلم فخرج العرابيون للثورة تطبيقا وتنفيذا لمبادئه ، ولكن الشيخ محمد عبده لم يوافق على هذه الثورة من البداية ، وشعر أنها مغامرة طائشة يمكن أن تجلب على مصر مصائب كثيرة أخطرها دخول قوات الاحتلال الانجليزى مصر ، وكانت الرؤية السياسية والمستقبلية واضحة أمام الشيخ أكثر من الثوار ، فهو يعلم تواضع الاستعداد العسكرى للعرابيين ، واستعداد الخديو توفيق للغدر بالبلاد ، فهو لا يهتم إلا بمصلحته والحفاظ على عرشه ، من هنا حذر الشيخ من القيام بهذه الثورة دون فائدة ، وعندما قامت الثورة العرابية ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ لم يستطع الوقوف مكتوف الأيدى ، وإنما دفعته وطنيته إلى الدفاع عن

القائمين بها ، وعن حرية وكرامة المصريين ، واستخدم صحيفة الوقائع فى تشجيع الثورة ، وشرح مفاهيم الحرية والديمقراطية والقومية ، وأوضح أن القومية لا تفرق بين الأديان ، وأنها سمة العصر منذ الثورة الفرنسية ، وأنها توجه ولاء الفرد للأمة ، وقد سميت القومية نسبة إلى القوم الذى يعيش الفرد بينهم ، ويشعر أن كيانه جزء لا يتجزأ من كيانهم ، وطالب أن تعتمد الحركة الوطنية على القومية ، أى أن يشترك فيها جميع عناصر الأمة بلا استثناء ، وشجع المواطنين على التبرع بالمال ، وفضح الخديو توفيق بنشر خياناته ، وبخاصة مع المصلح الكبير جمال الدين الأفغانى ، فقد ذهب هذا المصلح على رأس وفد من المصريين إلى قنصل فرنسا بمصر ليبلغوه أن حزبا قد تشكل ويطالب بأن يتنازل « الخديو إسماعيل » عن الحكم لابنه توفيق ، فقد توسم فيه الأفغانى الخير فى حكم مصر ، وبخاصة أنه كان يحضر محاضراته ويستمع إليه ، وتم خلع إسماعيل سنة ١٨٧٩ وتولى توفيق الحكم ، وفى بداية حكمه قال للأفغانى :

« .. أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد .. » .

فى ٢٤ أغسطس من نفس العام ١٨٧٩ أمر الخديو توفيق بالقبض على جمال الدين الأفغانى وطرده من البلاد ، وفى السويس وقف المصلح الكبير يودع زملاءه وتلاميذه وهو يبكى بكاء مرا ، وشد على يد محمد عبده ، ونظر إلى تلاميذه قائلا :

(.. لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما ..)
لذلك كان الشيخ محمد عبده لا يأمن إلى الخديو توفيق ، وكم حذر من هذه الثورة ، ولكنه بروح الوطنية انضم لها بعد قيامها ، فلم يكن هناك بد من ذلك ، ولم يهدأ توفيق إلا بعد القبض على الشيخ محمد عبده ، وسجنه لمدة ثلاثة أشهر ، وإهانته بطريقة لا تتفق مع رجل دين ووقور .

فشلت الثورة العرابية ، وتحقق ما حذر منه الشيخ محمد عبده ، وسلم عرابى سيفه لقائد القوات الإنجليزية الزاحفة إلى القاهرة ، والتى دخلتها فى اليوم التالى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، واستمرت فى احتلال مصر لمدة سبعين سنة .

لم يكتف الخديو توفيق بسجن الشيخ محمد عبده وحسب ، بل أصدر حكما بنفيه إلى سورية ثلاث سنوات امتدت إلى ست سنوات بسبب وطنيته ومواقفه الصلبة ضده ومحاولة التشهير به دائما ، وأثناء سجنه نظم الشيخ قصيدة طويلة تبلغ مائة وخمسة عشر بيتا وصف فيها الثورة العرابية وموقفه منها ، ودوره الوطني فيها .. وترك مصر إلى سورية فمكث فيها حوالى السنة ثم دعاه أستاذه الأفغانى إلى باريس حيث أصدرا صحيفة العروة الوثقى سنة ١٨٨٤ ، وجعلا منها منبرا للهجوم على الاستعمار ، وتشجيع الشرقيين بعامة والمسلمين بخاصة على التمسك بحقوقهم ، والتخلص من الفتور الوطنى الذى يعانون منه ، وشرح حقيقة الإسلام وتقبله لكل الحضارات وتشجيعه للمدنية والتقدم .

كان من الطبيعى أن تعمل انجلترا على القضاء على هذه الصحيفة الثورية « العروة الوثقى » التى تنشر الوعى وتهرب إلى مصر ، وبالفعل توقفت عن الصدور ، وافترق الشيخ عن أستاذه الأفغانى الذى سافر إلى أسطنبول ، أما الشيخ فقد سافر إلى لندن من أجل القضية الوطنية ، وهناك اجتمع بكثير من الصحفيين وأعضاء البرلمان الانجليزى وناقشهم فى ضرورة الاستقلال عن مصر ، وأدلى بحديث لصحيفة « البول مول جازيت » هاجم فيه الاستعمار البريطانى وطالب باستقلال مصر ، وفند كل الأسباب التى تتشدق بها بريطانيا لتستمر فى استعمار مصر .. وقال بحسم : إن لنا إليكم رجاء واحدا هو أن تغادروا بلادنا حالا من غير رجعة .. » .

وعن الخديوى توفيق قال الشيخ للصحيفة :

« .. توفيق باشا أساء الينا أبلغ السوء ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكننا أن نشعر إزاءه بأدنى احترام ، لكنه إذا ندم على ما فرط منه وإذا عمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سوءاته ، إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » عاد الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى سورية سنة ١٨٨٥ ، وعمل بالتدريس فى المدرسة السلطانية ، كما عمل بالكتابة والصحافة ، وترجم رسالة « الرد على الدهريين » للأفغانى من الفارسية إلى العربية .

تدخل الزعيم سعد زغلول لكى يعود إلى مصر صديقه وأستاذه الشيخ محمد عبده ، فطلب من « الأميرة نازلى فاضل » التدخل لدى ابن عمها « الخديو توفيق » للسماح له بالعودة ، فوافق وعاد الشيخ إلى مصر سنة ١٨٨٨ .

بعد عودته عمل الخديو على إبعاده عن وظائف التعليم خوفا من أفكاره التقدمية ، وعينه نائب قاضى بمحكمة بنها ، ثم رقى إلى قاضى بمحكمة المنصورة الأهلية ، وفى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ أصبح قاضيا من الدرجة الأولى فى محكمة بالقاهرة ، وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية فأتقنها كتابة وحديثا وبخاصة أثناء رحلاته إلى فرنسا واستخدامه للغة .. وارتقى بعد ذلك إلى وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف ، وكانت أحكامه صائبة ، بل وتعليمية إذ كان يشفعها بدراسة توضيحية وقد عبروا عن إعجابهم به قائلين « إنه مفخرة للقضاء المصرى » .

وعلى الرغم من إبعاده عن التعليم إلا أنه كان يلتقى أسبوعيا بأبناء الأزهر ودار العلوم والأدباء والشباب يناقشهم فى مشاكلهم ويبث فيهم من روحه الجياشة بالحب والوطنية ، الفياضة بالحضارة والمدنية ، المؤمنة بالقيم

الدينية .. فى سنة ١٨٩٤ عين الشيخ عضوا بمجلس إدارة الأزهر ، وفى بداية شهر يونيو سنة ١٨٩٩ وقع الاختيار عليه ليكون مفتيا للديار المصرية ، واشترط على الحكومة أن يعود لعمله فى القضاء فى محكمة الاستئناف فى حالة الإقالة أو الاستقالة .

خلال عمله كمفتى لمصر ، كان مثالا لرجل الإصلاح والتعليم ، وكان أول قراراته ، إنشاء إدارة للمساجد ، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد لمعالجة القضايا الملحة ، ووافق الشيخ محمد عبده على مشاركة المرأة فى الأمور السياسية وعلى تعليمها ؛ ودعا إلى إنشاء الجامعة الأهلية ، وأفتى أن من حق المرأة أن تطلب الطلاق من زوجها لسبب شرعى تثبته بطريقة شرعية ، كما دعا إلى عدم تعدد الزوجات إلا للضرورات الشرعية ، وأوضح بأن البرقع أو النقاب ليس إسلاميا وإنما أخذه العرب من الشعوب الأخرى ، وأن أئمة المسلمين أجمعوا على أن تكشف المرأة وجهها وكفيها ، وأن الحجاب التام لم يناد به الإسلام لا القرآن ولا الأحاديث .. فالقرآن أعطى للمرأة كل حقوق الرجل فى التجارة والزراعة والحقوق المدنية ، فكيف تبيع وتشترى ولا يرى أحد وجهها ؟ .. وكيف تقف فى المحاكم ويسألها القاضى ولا يرى وجهها ولا يعرف لها اسما أو رسما ؟ .. لابد أن تكشف وجهها .. كيف تكون عندك خادمة فى البيت أو عاملة فى حقل أو دكان ولا ترى وجهها ؟

سئل الإمام الشيخ محمد عبده :

هل التعامل مع البنوك بإدخار الأموال فيها والحصول على الأرباح حلال أم حرام ؟

أجاب .. حلال .

"هل إذا أعطيت بعضا من أموالك لأحد التجار ، ليتاجر فيها ويعود عليك بالمكسب حرام أم حلال ؟

أجاب .. حلال .

ترك الإمام فى المكتبة العربية عدة كتب ثمينة منها :

* المسلمون والإسلام .

* تفسير سورة عم .

* رسالة التوحيد .

* الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

اهتم الإمام الشيخ محمد عبده بإصلاح المحاكم الشرعية ، وساهم فى تأسيس الجمعيات الخيرية ، ومنها الجمعية الخيرية الإسلامية التى انتخب رئيساً لها سنة ١٩٠٠ ، ودعا لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وتنقية الدين الإسلامى من الشوائب ، واهتم بإحياء الكتب العربية القديمة ، كما اهتم بالكتابة الأدبية وطالب بالموضوعية البعيدة عن المحسنات اللفظية المتكلفة فأسهم فى تطوير الأدب العربى بالقدر الذى أسهم فيه بتطوير صحافتنا فى أعقاب القرن الماضى .

لم يكره الشيخ محمد عبده فى حياته أحداً أكثر من الوالى محمد على وأسرته من بعده ، وربما يرجع ذلك إلى حبه واحترامه وإيمانه بكل ما هو مصرى ، وكان يعلن ذلك صراحة دون خوف أو تردد ، بل نشره فى مجلة المنار بعددها الصادر فى ٧ يونيو سنة ١٩٠٢ بمناسبة مرور مائة سنة على قيام أسرة محمد على ، يقول الشيخ محمد عبده :

« .. إنه أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ، ورثه عن أصله الكريم .. حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ، لتصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا واحداً له ولأولاده .. » .

والمقال يعتبر وثيقة تاريخية بقلم شخصية ذات أهمية عاشت أثناء ذلك الحكم وعرفت عنه الكثير ، والمقال بأكمله منشور فى كتاب « ساعات مع الأحرار » للأديب المعروف أحمد قاسم جودة فى الفصل الأول الخاص بالشيخ محمد عبده .

هكذا عاش الشيخ محمد عبده ، رجلا وطنيا ثائرا على الاستعمار بشتى أنواعه الانجليزى والعثمانى ، صاحب رسالة تعليمية تطالب بنشر العلم وحرية الصحافة وحق التعليم السليم والمناسب للجميع ، والاهتمام بالمعلم والمنهج وتبسيط العلوم ، وبخاصة فى المجال الدينى ، كما كان رجل عدالة ، عمل قاضيا فكان مفخرة للقضاء ، وأستاذا لجيله من رجال العدالة والقانون ، ولم يهتم بالعدالة فى المحاكم وحسب ، بل طالب بالعدالة الاجتماعية للشعب كله وشجب الظلم بكل أنواعه .. أما محمد عبده الشيخ الجليل والإِمام المفتى فكان مثالا لرجل الدين الواعى المتفتح الذى يعرف دينه جيدا ويؤمن بأن الإِسلام دين الحب والسلام ، وتحرير

المرأة واحترام إنسانيتها ، وأنه مع العلم والمدنية ، والوحدة الإنسانية ، والإيمان بكل الرسالات السماوية .

أصيب الشيخ محمد عبده بمرض سرطان الكبد وهو فى كامل نشاطه وأوج عظمته ، ولم يمهله هذا المرض اللعين طويلا بل أدى إلى وفاته فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ وهو تاريخ نفس اليوم الذى ولد فيه ، أى أنه مات فى عيد ميلاده السادس والخمسين .. وأثناء جنازته ازدحم الناس ، وأغلقت الحوانيت ، وتوقف البيع والشراء ، وتعطلت حركة الأسواق ، وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واستعدت له ، وكانت جنازته مظاهرة حب له ، عبرت عن وفاء أبناء مصر جميعاً لرجل عاش من أجل مصر وفى حب مصر ، وترك لها أفكارا عظيمة تحافظ على حضارتها وتقدمها ووحدة شعبها ، كما ترك لها تلاميذ أقوياء كانوا بمثابة قادة الفكر بعده ، منهم سعد زغلول ، أحمد لطفى السيد ، قاسم أمين ، محمود سامى البارودى ، إبراهيم المويلحى ، الشيخ مصطفى المراغى ، الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ محمود شلتوت وغيرهم .. لقد كان الأستاذ العقاد محقا عندما قال عنه :

إنه عبقرى الإصلاح والتعليم والهداية ، أعظم من أنجبته القرية المصرية ونهض برسالة الأزهر فى عصره.

يذكر لمعى المطيعى فى كتابه « هؤلاء الرجال من مصر » فى الفصل الخاص بالشيخ محمد عبده ، القصيدة التى رثاه بها شاعر النيل حافظ إبراهيم ، والتى قال فيها :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة

وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفى الصين جازع

وفى مصر باك دائم الحسرات

وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب

وفى تونس ماشئت من زفرات

ومن عجب أن نجد فى عصرنا الحديث بعض الصعاليك والجهلة وأنصاف المتعلمين ، الذين يهاجمون الشيخ الجليل والإِمام العظيم محمد عبده ، بدلا من أن يكرموه ويذكروه بالخير ، ويعترفوا بدوره الرائد فى الوطنية والإِصلاح والتعليم .. ليتهم يتعلمون منه حتى يستحقوا احترامنا !.





■ إذا أراد المصـــريـون أن يصلحـوا أحوالهـم فعليـهم أن يبتـدئوا فى الإصلاح من أوله ، وأول الإصــلاح هو تربيــة النساء ومشاركتهن الرجال فى أفكارهم وآمـالهم وآلامـهم ، إن لم يشــاركـونهم فى جـمـيع الأعمال .

قاسم أمين
المحارب الجسور
١٨٦٥م-١٩٠٨م

المــرأة نصف المجتمع ، وهى منبع الحياة ، وأصل المجتمعات ، وإذا أردت أن تتعرف على أسباب تقدم أو تأخر أى مجتمع ابحث عن دور المرأة فيه ، لهذا قال الشاعر :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت جيلا طيب الأخلاق . ونحن نردد فى الأمثال أن كل عظيم وراءه امرأة .. وهذا صحيح .. من هنا كان على المجتمعات المختلفة أن تحترم المرأة كإنسان له كل الحقوق وعليه كل الواجبات ، وأن تفتح لها مجالات التعليم والعلم والآداب والفنون ، لأن تقدم أى أمة مرهون بتقدم المرأة فيها وحصولها على كل حقوقها .. وقد سبقتنا الدول الأوربية فى هذا المجال ، وتحررت المرأة الأوربية فى نفس الوقت الذى ظلت المرأة الشرقية ، والمصرية بالذات حبيسة البيت والحجاب ، وعندما خرج أبناء مصر البررة إلى العالم ، وشاهدوا المجتمعات المتمدينة ودور المرأة الإيجابى فيها ، لم يستطيعوا الصمت ، ودفعتهم وطنيتهم إلى رفع أصواتهم منادين بتحرير المرأة .

لعل أشهر هؤلاء هو المفكر الكبير ورجل القانون قاسم أمين ، الذى جعل تحرير المرأة رسالته وكفاحه .

ولد قاسم أمين فى الأسكندرية فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٥ لأم مصرية وأب من أصل تركى ، أى من أسرة أرستقراطية ، وكان ذكيا نابها منذ طفولته ، درس فى الأزهر ، ثم حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٨١ وكان الأول على دفعته ، عمل بمهنة المحاماة فترة قصيرة ثم سافر إلى فرنسا لدراسة القانون بجامعة مونبيلييه ، وبعد أربع سنوات حصل على شهادتها متفوقا كالعادة ، وفى فرنسا تعرف على جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، كما درس المجتمع الفرنسى وغاص فى أعماقه ، وأخذ

يبحث عن أسباب تقدم الشعب الفرنسى حتى توصل فى النهاية إلى أن السبب الرئيسى هو تحرر المرأة الفرنسية ، التى احتفظت بأنوثتها وجمالها مع عقل الرجل ونضجه .. وكان طبيعيا أن يقارن قاسم أمين الشاب المتفتح القادم من مصر ، والذى يعيش فى فرنسا بلاد النور والحضارة بين حال المرأة التعس فى بلده ، وبين المرأة الفرنسية المتحررة المحترمة فى كل المجالات ، وهاله وضع المرأة المصرية ، واختفاؤها وراء الحجاب ، وعدم احترام الرجل لها واعتبارها جزءا من البيت كالمقعد والصوان ، وعدم تعليمها ، واختصار مهمتها الرئيسية فى الحياة على الحمل والإنجاب وإعداد الطعام وتنظيف البيت .

عاد قاسم أمين من فرنسا وعمل فى مهنة القضاء ،انتقل إلى نيابة بنى سويف ثم طنطا ، وفى النهاية عين مع سعد زغلول بقرار واحد قاضيين بمحكمة الاستئناف ، وأصبح كل منهما مستشاراً فى سنة ١٨٩٤ ، وتزوج قاسم بعد ذلك وعاش حياة هادئة عادية .

لم ينس قاسم أمين المجتمع الفرنسى ، والسنوات الأربع التى عاشها هناك بين العلم والحضارة .. كذلك لم ينس المرأة الفرنسية المتحضرة المحترمة ، السافرة بوقار ، والمتحررة بأخلاق ، وأخذ يدرس المجتمع المصرى وأسباب تخلفه وتأخره ، وتوصل إلى الأسباب الحقيقية وهى العلاقة غير السوية بين الرجل والمرأة ، والنظرة الهمجية للمرأة ، وأشفق على المجتمع ككل فالمرأة المصرية تعيش فى رق الرجل ، والرجل يعيش فى رق الحاكم ،

وهكذا أصبح الرجل ظالما فى بيته مظلوما خارجه ، ومن هنا قرر أن يفجر قضية مهمة ملحة هى قضية تحرير المرأة ، وكان يعرف أن تحرير المرأة يبدأ بتحرير الرجل نفسه ، فالإنسان الحر هو الذى يدافع عن حرية الآخرين .

كان قاسم أمين يعرف أيضاً خطورة دعوته فى عصر الحريم ، أو فى مجتمع ينظر إلى المرأة نظرة ملؤها .الاحتقار والمذلة والجنس والعيب ..!! مجتمع يضع الرجل والمرأة . كما يقول محمود عوض فى كتابه .. أفكار ضد الرصاص ، يضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما من بعض .. فالرجل يجب أن تكون له لحية طويلة ، أو شارب ضخم ، حتى تكون رجولته ظاهرة من بعيد . من مسافة .! أما المرأة فيجب أن تبدو كخيمة تمشى على قدمين ، خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين ضيقين يسمحان لعينيها بالرؤية .. إن كلا من الرجل والمرأة يجب أن يتميز عن الآخر فى سلوكه . فالرجل قوى . عدوانى . جهورى الصوت . والمرأة ضعيفة .. خجلة .. خافتة الصوت .. تلتزم دائماً موقف الدفاع .. المرأة لا تتكلم ، بل تستمع . لا تناقش ، بل تطيع . لا تتحرك . بل تنتظر ..» .

اختمرت فكرة تحرير المرأة فى عقل قاسم أمين فأعدها لتكون كتابا بعنوان « تحرير المرأة » ولأنه يعرف صعوبة القضية عرض على صديقه أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى ، والذى درس أيضا الحقوق فى باريس ، أن يشترك معه فى تأليف الكتاب ، لكن الأخير تهرب من الموقف ، وقال لقاسم .. إن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة .

وجد قاسم أمين نفسه ، وحيداً فى الميدان ، وكان لابد أن يقاتل ضد التخلف والرجعية والتأخر ، ولم يخف أو يتردد ، على الرغم من تيقنه بالمشاكل ، بل بالمصائب التى ستأتى من وراء دعوته ، وبروح الفدائى الذى يحارب من أجل حرية واستقلال الوطن ، لا يبالى بالروح والدم والمال أصدر كتابه « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٩,

يقول قاسم أمين فى كتابه :

« أيجوز أن نترك نساءنا فى حالة لا تمتاز عن حالة الأنعام ؟ .. أيصح أن يعيش النصف من أمتنا فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئاً مما يمر حولهن ؟ ..» .

ثم يتساءل قاسم أمين عن تميز الرجل فى كل شيء فيقول :

« .. لماذا هذه الفجوة بين الرجل والمرأة .. فالرجل له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود .. وهى بعض الكل الذى استولى عليه ..» عن تعليم المرأة يقول :

« .. لست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى . وإنما أطلب الآن ولا أتردد فى الطلب أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثلما يعتنى بتعليم البنين ..» .

اهتم قاسم أمين أيضاً بضرورة الدعوة إلى الحرية الاقتصادية للمرأة ، وفى هذا يقول :

« .. إن إعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، وهو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فإن الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء ، استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ فى نظره إلا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه ، على أن يتسلى به !» .

أما عن الحجاب فقد كتب قاسم أمين رأيه بصراحة وحرص فى نفس الوقت .. قال :

« .. إن الحجاب رمز لانعزال المرأة عن المجتمع ، إنه مانع عظيم يمنعها من الارتقاء ، إنه سجن إجبارى تقضى المرأة حياتها داخله باسم العفة . و .. لا أدرى كيف نفخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى السجن ؟ .. ثم هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ .. إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل فى أثناء سيرها . والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك . إذ هو يخفى شخصيتها . ولو كان وجهها مكشوفاً فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعرانها بالحياء والخجل فى كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات الأنظار ..

وإنى لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة ، والنساء على ماهن عليه اليوم .. فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها

الوصول إلى الغرض المطلوب ، كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وإنما الذى أميل إليه هو إعداد نفوس البنات فى زمن الصبا إلى هذا التغيير ..» .

هكذا خرج كتاب « تحرير المرأة » إلى الناس ، بمثابة ثورة فكرية كبيرة تعالج أهم مشكلة فى المجتمع المصرى وقتذاك ، مشكلة تحرير المرأة وتعليمها وحجابها وزواجها وطلاقها وعملها ، وكان قاسم أمين جريئا حرا ثوريا محبا لمصر ، فقال كلمته بشجاعة يندر أن نجدها فى غيره ، حتى أن أحمد لطفى السيد قال عنه بعد سنوات من موته :

« .. ما علمت امرأ يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لاحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم أمين ..»

ثورة اجتماعية فجرها قاسم أمين ، وثورة ضده فجرها الذين لم يفهموه من التقليدين والرجعيين والمتزمتين من رجال الدين ، اتهموه بالكفر والفجر والفساد والانحلال ، وحتى أصدقاءه الذين أيدوا دعوته ، تركوه فى الميدان وحده يتلقى الضربات والإهانات ، ولم يفكر أحدهم فى الدفاع عنه ، بل تركوه لمصيره المحتوم ، ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد ، وإن دافعوا عنه بعد ذلك ، بعد فوات الأوان ، وهل يصدق أحداً أن الزعيم الوطنى مصطفى كامل يهاجم دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة ، ويُسخر صفحات جريدته « اللواء » فى النيل من وطنيته وأهدافه !!؟ .. وغير هؤلاء كثير هاجموا الرجل بشتى الطرق ، بالكلمات والمقالات والمقابلات وإصدار الكتب ، وبلغ عدد الكتب التى انبرت تهاجم دعوة قاسم أمين أربعون كتاب ، منها على سبيل المثال .. الدفع المتين فى الرد على قاسم بك أمين .. ، وكتاب الجليس الأنيس فى التحذير عما فى تحرير المرأة من التلبيس .. وكتاب السنة والكتاب فى حكم التربية والحجاب .. وحتى رجل الشارع لم يترك قاسم أمين فى حاله ، فذات ليلة

بعد نشر الكتاب عاد قاسم إلى بيته فى المساء فإذا به يفاجأ برجل غريب يقترب منه ويقول له :

أنا عاوز الست بتاعتك !

نعم ؟ ماذا تقول ؟

إيه ! ... أنا عاوز الست بتاعتك ..

عاوزها فى إيه ؟

عاوز اجتمع بيها .. عاوز أختلط معاها .. عاوزها تخرج معايا !

واستطرد الرجل .. أليست هذه أفكارك ودعوتك فى كتابك « تحرير المرأة » وأجاب قاسم أمين : نعم هذا كتابى ولكنك أسأت فهم أفكارى التى ضمنها الكتاب .

لم تفلح الحملات الشرسة الصعبة المستميتة فى تغيير فكر قاسم ، أو إنكاره لدعوته ، بل ظل متماسكا قويا مؤمنا بدعوته فى ضرورة تحرير المرأة ، حتى يتحرر المجتمع ككل من رجعيته وسباته العميق وتخلفه المزمن ، والعجيب والطريف فى نفس الوقت أن بعض النساء كن يهاجمن قاسم الذى كرس حياته فى الدفاع عنهن ، ولكنه كان يقدر خطورة دعوته فى ذاك الزمان المبكر ، ولذلك فقد غفر للجميع إساءاتهم ولكنه تمسك فى نفس الوقت بدعوته .

فى العام التالى لصدور كتاب « تحرير المرأة » أى فى سنة ١٩٠٠ أصدر قاسم كتابه الثانى عن المرأة ، تحت عنوان : « المرأة الجديدة » ، رد فيه على جميع من هاجموه ، وفند هجومهم وافتراءهم عليه بندا بندا ، وشمل الكتاب خمسة أبواب غير المقدمة والخاتمة هى :

المرأة فى حكم التاريخ .. حرية المرأة .. الواجب على المرأة لنفسها .. الواجب على المرأة لعائلتها .. التربية والحجاب .

وفى مقدمة الكتاب يعرف المؤلف المرأة الجديدة قائلا : « .. المرأة الجديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع .. هذا التحويل هو كل ما نقصد .. غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة ، وتحسن استعمال مالها من النفوذ فى البيت .

إذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح أن يصدنا عن المثابرة فى السعى إلى تحقيق آمالنا أن الجمهور من العامة لم يلتفت إليه ، أو أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ، ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأينا ، وساخر يقضى عمره فى السفاسف ، ومغتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟؟

نحن لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس ..»

ثم يركز قاسم أمين بعد ذلك على شريعة الإسلام السمحة والتى تعطى المرأة حريتها وترفع مكانتها ، التى للأسف يجهلها أولا يفهمها حتى رجال الدين المترمتين ، وفى هذا يقول :

« .. فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية فى تقدير ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت فى المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أن أباحت لها أن تكون وصية على الرجل وأن تتولى وظيفة الإفتاء والقضاء ، أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر رضى

الله عنه على أسواق المدينة نساء ، مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة إلا في العام الماضي .. إذا كانت شريعتنا تحابي عن المرأة إلى هذا الحد ، وتمنحها هذه الدرجة من الحرية ، فهل يجدر بنا في هذا العصر أن نغفل مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التي تؤهل المرأة إلى استعمال هذه الحقوق النفسية ، ونضيع وقتنا في مناقشات نظرية لا تنتج إلا تعويقنا عن التقدم في طريق الإصلاح لحالنا ..؟ » .

يهتم قاسم أمين في كتابه الجديد المرأة الجديدة بتربية المرأة ومعاملتها كإنسان له كل الحقوق وعليه كل الواجبات إنسان قائم بذاته ، فيقول في الفصل الخاص بالواجب على المرأة لنفسها :

« .. يجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها أولا ، لا أن تكون متاعا لرجل ربما يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها ..

يجب أن تربى المرأة على أن تدخل في المجتمع الإنساني وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء ..

يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها ..» .

وفي فصل الواجب على المرأة لعائلتها يهتم المؤلف بأن يوضح الآثار السيئة لجهل المرأة على تربية الأطفال ، فالأمهات الجاهلات يقتلن في كل سنة من الأطفال ما يربو على عدد القتلى في أعظم الحروب ! وكثير منهن يجلبن على أولادهن أمراضا وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملا ثقيلا عليهم طول عمرهم ، وليس لهذا البلاء سبب في الأغلب سوى جهل الأمهات بقوانين الصحة ، فلو كانت كل أم تعرف أن ما يتعلق بتغذية

الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له أثر على جسمه لأمكنها أن تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية ، هذا فى الطفولة ، وفى الصبا يحتاج الأبناء إلى أم لها ثقافة نفسية وتربوية حتى تستطيع القيام بواجبها المهم فى التربية نحو عائلتها .

فى الفصل الأخير من الكتاب يوضح لنا قاسم أمين كيف يمكن أن نعد ونربى المرأة الجديدة ؟ ، يقول فى فصل التربية والحجاب :

« .. لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية وأنه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التى خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فى حكم القاصر ، لا تستطيع أن تباشر عملاً ما بنفسها مع أن الشرع يعترف لها فى تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل ، وجعلها سجينة ، مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل لو لم يكن فى الحجاب إلا هذا العيب لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلىاحترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها ..

لا نجد من الصواب أن تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .. من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة إلى الصحة كالرجل ، فيجب أن تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللاتى يشاركن أقاربهن الرجال فى أغلب الرياضيات البدنية .

المرأة كالرجل على حد سواء فى الاحتياج إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته .. ومهما عظم اشتغال المرأة ، متزوجة أو خالية ، ذات أولاد أم لا ، فإنها تجد من الوقت ما تثقف فيه عقلها وتهذب نفسها .. ولو خصص نساؤنا للمطالعة عشر الوقت الذى يقضينه فى اليوم فى البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهن الأمة المصرية ارتقاء باهرا ..

وأضيف على ذلك أنه ينبغى على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت .

ولابد من استلفات النظر إلى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها إلى الفنون الجميلة .. فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم ، لأن العلم يعرفنا الحقيقة ، وهذا الفن يحببها إلينا .. ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا ، ومن أحسن ما وصفت به قول أفلاطون .. « إن الموسيقى تبعث الحياة فى الجماد ، ويسمو بها الفكر ، ويرتقى الخيال ، وتبث فى النفس الفرح والسرور ، وترفعها عن الدنايا ، وتميل بها إلى الجمال والكمال .. » .

هكذا يرى قاسم أمين المرأة الجديدة ، ويحاول بفكره وشجاعته وجرأته أن يضع لنا الشروط التى يمكن للمرأة المصرية أن تصبح هذه المرأة الجديدة .

ظل المحارب الشجاع قاسم أمين يحمل سلاحه وهو القلم يناضل به ويكافح قضيته فى تحرير نصف المجتمع ، لم يستسلم للهجوم أو الضربات ، حتى وافته المنية وهو فى شرخ الشباب ، فى الثالثة والأربعين من عمره ، فقد مات فى ٢٣ إبريل سنة ١٩٠٨ .

وبعد موته عرف الجميع قيمة الرجل وأهمية دعوته .. والسؤال الذى يفرض نفسه الآن :

ماذا لو عاد قاسم أمين ورأى حال المرأة المصرية الآن ..؟!!



م أولد مـصرياً لوددت
مصرياً .
فى كامل»

مصطفى كامل
مصــر أولا
(١٨٧٤م ـ ١٩٠٨م)

هذا الإنسان عاش حياته كلها وأفنى شبابه من أجل حرية واستقلال مصر ، لم يتزوج أو يهتم بصحته أو يذهب إلى أماكن اللهو كما يفعل الشباب ، وإنما كرس كل وقته وكفاحه من أجل القضية الوطنية . عشق بلاده عشقاً ملأ عليه حياته بالسعادة والفرح وأخذ يتغنى بها قائلاً .. « لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .. » .

إنه ابن مصر البار الزعيم مصطفى كامل الذى يضرب لنا أروع الأمثال فى الوطنية والتفانى فى حب البلاد والانتماء إلى مصر العزيزة أمّ الدنيا .

ولد مصطفى كامل بالقاهرة فى الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٧٤ من أبوين كريمين ، اشتهر أبوه بالجدية واحترام النفس وكراهية التملق والنفاق وإعلان الرأى بحرية ، والرحمة والعطف على الأيتام ، كما كانت أمه ابنة أحد الضباط المصريين ، وعرف عنها طيبة القلب واعتزازها بوطنها ، وكان من الطبيعى أن يتعلم مصطفى كامل من والديه حب الوطن واستقامة الأخلاق والطيبة والشهامة ، وقد أظهر منذ نعومة أظفاره رجولة لا تتفق مع سنه الصغيرة ، وشجاعة أدبية لا تتوافر كثيراً عند أقرانه ، كان يصاحب أباه فى صلاة الفجر ويجلس مع الرجال كواحد منهم وهو الطفل الصغير ، واستفاد من خبرة أشقائه الكبار .

تعلم مصطفى فى البداية القرآن الكريم لرغبة والده فى إلحاقه بالأزهر ، لكنه فى النهاية ألحقه بمدرسة أم عباس الابتدائية وقد أظهر الطفل مصطفى منذ البداية نبوغاً وتفوقا فى العلوم والرياضة والكيمياء والطبيعة واللغة العربية ، لكنه كان ضعيفاً فى اللغتين الفرنسية والانجليزية ، وحدثت له فى المدارس الابتدائية الثلاث التى التحق بها بعد المشاكل نتيجة اعتزازه بنفسه وثقته فى رجولته وعمره العقلى الكبير الذى لا يتفق مع عمره الجسدى

كطفل ، كانت المشكلة الأولى فى مدرسة والدة عباس باشا الأول ، إذ عاد مصطفى آخر النهار إلى والده غاضباً طالباً أن يترك المدرسة لأن مدرساً فيها ظلمه وأهانه معاً . فقد سأل المدرس أحد التلاميذ سؤالاً فلم يجبه ، وأسرع مصطفى التلميذ المتفوق بالرد الصحيح ، وبدلاً من أن يعتز به المدرس وبخه وسبه وحبسه بعد انتهاء اليوم الدراسى لمدة ساعتين ، وطلب مصطفى أن يترك هذه المدرسة التى يعمل بها هذا المدرس الظالم ، الذى يسب التلاميذ بدلاً من أن يعلمهم الأخلاق الحميدة ، وانتقل مصطفى إلى مدرسة السيدة زينب التى عرفت فيما بعد بمدرسة محمد على ، ومرة ثانية يختلف التلميذ مع مدرسه ، فقد سأل مصطفى مدرس اللغة العربية السيد أفندى الحسينى .. متى نتلقى دروس التاريخ ؟

قال المدرس : إن مادة التاريخ تحتاج إلى سن أكبر من سنه وإلى نضوج أكثر .. فرد التلميذ مصطفى : إن هذه المدرسة أصغر مما كنت أظن ..

شعر المدرس أن تلميذه مصاب بالغرور ، وبخاصة أنه كان الأول على دفعته ، ومن هنا أمره بأن يترك الفصل . اعتبر مصطفى طرده من الفصل إهانة لكرامته ، وساءت صحته بعد ذلك وأصيب بأول أمراضه الطويلة فالتزم بالبيت مدة شهرين ، وفى هذه الأثناء توفى والده ، فطلب من أخيه المهندس حسن واصف أن ينقله إلى مدرسة القربية ، وانتقل بالفعل إليها ، وفى هذه المدرسة وجد مصطفى كامل المجال الذى يريده ، كان خطيب المدرسة والمشارك فى كل الأنشطة والهوايات وأحبه مدرسوه واحترموه وقدروا مواهبه وتفوقه ، وكان الأول على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٨٧ ، وكان المتبع فى ذلك الوقت أن يقام حفل كبير لتوزيع الشهادة على التلاميذ يحضره الخديوى توفيق نفسه ، وفى يوم الحفل طلب المدرسون من

مصطفى كامل إعداد كلمة لإلقائها فى الحفل ، لكن مصطفى خطيب المدرسة ارتجل كلمة أمام الضيوف أعجبت الخديوى توفيق باشا فسأل مصطفى عن اسمه واسم أبيه وعمره وأجاب التلميذ بأدب شديد ، لكن ضابط المدرسة كان يقف وراء مصطفى وطلب منه أن يسبق إجابته بكلمة عبدك مصطفى ، وعبد سموك على محمد ، ولكن التلميذ لم يهتم بكلام ضابط المدرسة ، وبعد انتهاء الحفل توجه إليه وقال له فى شجاعة أدبية :

« ما كان أبى عبداً لأحد وما كنت كذلك ولا أحب أن أكون كذلك ..» .

هكذا كان مصطفى كامل منذ طفولته شخصية واثقة من نفسها ، تؤمن بالحرية والاستقلال وتكره العبودية والانزواء . التحق صاحبنا بعد ذلك بالمدرسة الثانوية الوحيدة فى القاهرة وهى المدرسة التجهيزية ، ولأول مرة يرسب مصطفى فى أحد المواد ، بل ورسب معه جميع زملائه ما عدا اثنين فقط فى الفصل ، وسبب ذلك أن الوزارة رفعت درجة النجاح إلى ١٦ درجة من ٢٠ درجة ، وهى نسبة عالية جداً بالطبع ، وفكر مصطفى ماذا يفعل فى هذا الظلم ، ثم قرر أن يذهب إلى وزير المعارف على باشا مبارك يشكو له هذا الوضع الغريب .

أمام مكتب الوزير منع الحاجب مصطفى من الدخول فدفعه التلميذ وهو يقول : كيف تمنعنى وأنا ابن الوزير فسمح له بالدخول مرحباً به .. وعندما وصل مصطفى إلى وسط غرفة الوزير ردد : نعم أنا ابن الوزير فى العلم ، ورحب الوزير به وسأله عن مشكلته ، ولما عرف الوزير بالظلم الذى وقع على التلاميذ أصدر أوامره لحل المشكلة ، وكانت هذه القضية الأولى

التى يترافع مصطفى كامل وينجح فى رد اعتبار التلاميذ ، ومن حسن حظه أن وزير المعارف كان على باشا مبارك الرجل الذى شجع التلاميذ على التعبير عن مشاكلهم ومجالسة الكبار للاستفادة من خبرتهم .

فى نفس المدرسة كان مصطفى يقف فى طابور الصباح بينما سمع الضابط عبارة نابية اتهم صاحبنا بأنه قائلها ، فضربه بعصا على ذراعه اليسرى ضربة مؤلمة ، ولم يكتف بذلك بل شتمه بألفاظ نابية وصوت عال ، واحتج زملاء مصطفى وكادوا يضربون ضابط المدرسة لولا مصطفى نفسه الذى منعهم من ذلك .

ذهب مصطفى إلى وزير المعارف مرة ثانية فلم يجده فى مكتبه فذهب إلى بيته وروى عليه ما حدث ، فأخذ الوزير التلميذ وذهبا إلى المدرسة ، وهناك وبخ الوزير ضابط المدرسة وكاد يفصله من عمله لولا تدخل ناظر المدرسة .

فى صيف سنة ١٨٩١ حصل مصطفى على شهادة الدراسة الثانوية ، كان أمله أن يلتحق بمدرسة الحقوق ، فهى فى رأيه مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم .

وفعلا التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ثم التحق سنة ١٨٩٢ بمدرسة الحقوق الفرنسية ووجد فيها البيئة الملائمة لطبيعته ، والفرصة فى إتقان اللغة الفرنسية ، وأخيراً تفرغ لمدرسة الحقوق الفرنسية ، وسافر فى شهر يونيو سنة ١٨٩٣ إلى باريس ليؤدى فيها امتحان السنة الأولى .

لم يكن مصطفى كامل مجرد طالب يدرس حتى يحصل على الإجازة أو الشهادة ويعمل ويتفرغ لحياته ككل إنسان ، وإنما كان إنساناً من نوع خاص ، أحب الوطن من كل قلبه ، وتألم وحزن من وجوده تحت

الاحتلال الإنجليزى ، وقرر وهو مازال طالباً صغيراً فى المرحلة الثانويةأن يدافع عن استقلال مصر ، وأن يدفع زملاءه للكفاح ومناهضة الاستعمار ، واشترك فى عدة جمعيات لخدمة هذا الهدف منها جمعية الصليبة ، جمعية الاعتدال ، جمعية الكمال ، جمعية العلم المصرى ، ثم أنشأ جمعية إحياء الوطن ، كان موهوباً فى الخطابة فاستغل الخطابة للدفاع عن الوطن ، وكان موهوباً فى الكتابة أيضاً فأنشأ المجلات مثل مجلة المدرسة ، وكانت مجلة شاملة تصدر شهرياً ، تهدف إلى تثقيف الشباب وتعريفهم بوطنهم ومشاكله ، وفيما بعد أنشأ جريدة اللواء سنة ١٩٠٠ كذلك نشر كتيباً سنة ١٨٩٣ تحت عنوان « أعجب ما كان فى الرق عند الرومان » وفكر مصطفى فى مستقبله وما العمل الذى يريد أن يتفرغ له ؟

وكان اختياره لمدرسة الحقوق حتى يدافع عن مشاكل الناس ومشاكل الوطن ، وشعر بعد ذلك بأن رسالته فى الحياة هى الدفاع عن الوطن وتحقيق استقلاله ، فتفرغ لذلك منذ كان طالباً فى مدرسة الحقوق بباريس وقبلها وفى هذا يقول : « .. سأبقى حتى الممات حاملاً لواء الاستقلال حتى أفنى حياتى فى هذه القضية ، بغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة ولو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى ..» .

فى باريس اهتم مصطفى كامل بجانب دراسته بقضية وطنه وحاول تعريف الرأى العام بما يفعله الإنجليز فى مصر من ظلم واضطهاد واستعباد للشعب ، ومن ثم طلب من الرأى العام الفرنسى أن يساعد مصر على الاستقلال ونيل حقوقها المشروعة ، وكان يكتب فى بعض الصحف هناك ، ويقابل الصحفيين لشرح قضية بلاده .. فى سنة ١٨٩٣ أدى

مصطفى كامل امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، ورسب فى إحدى المواد ، وجُن جنونه كيف يرسب وهو الطالب المجتهد الذى يكرس كل وقته للمذاكرة والعمل الوطنى ؟ .. كيف يرسب وهو الذى يبتعد عن كل إغراءات باريس وبخاصة للشباب ؟

واتخذ مصطفى بعد ذلك قراراً عجيباً يدل عن مدى الثقة الكبيرة فى النفس والقدرة على تحويل الفشل إلى نجاح وإلى تفوق ، فقد قرر أن يؤدى امتحان السنتين الباقيتين - الثالثة والرابعة - فى مدرسة الحقوق الفرنسية فى سنة واحدة هى سنة ١٨٩٤، وقابلته مشاكل كثيرة حتى يحقق هدفه ، واضطر إلى تغيير المدرسة التى كان يدرس بها ، كما عامله بعض الأساتذة معاملة جافة وحازمة لطلبه الغريب ، والاستثناء الذى لم يحدث لطالب أجنبى فى تاريخ الكلية ، لكن روحه المثابرة المكافحة جعلته يقبل التحدى ويتغلب على كل المشاكل ويحصل فى سنة ١٨٩٤ على شهادة ليسانس الحقوق وله من العمر عشرون سنة ، تفوق مشرف لصاحبه ولمصر التى لم ينسها فى الداخل والخارج .

فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ بعث برسالة إلى أخيه على فهمى كامل يقول فيها :

« ..اليوم أحمد الله حمداً كبيراً وأشكره شكراً جزيلاً أن فك قيد أسرى ، ومن بإطلاقى فى ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملاً لشهادة الحقوق ، وقد عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ، وأرجو أن أبلغ ما أتمنى لأكون المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ..» هكذا كان مصطفى كامل

يتذكر بلاد دائماً ولم ينسها لحظة واحدة حتى وهو يكتب رسالة لأخيه يخبره فيها عن نجاحه .

تفرغ مصطفى كامل بعد ذلك للقضية التى وهب عمره كله لها ، وأفنى حياته من أجلها وهى قضية استقلال مصر ، فأخذ يخطب فى الجماهير فى القاهرة والاسكندرية والمحافظات الأخرى لدفع الجميع على معرفة قضية الوطن ، وضرورة الاستقلال ، والأمل الكبير فى الحصول عليه وعدم اليأس ، وعلى حد قوله : « لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة » ..

لم يترك مصطفى كامل وسيلة أو شخصية يمكن أن تفيده فى الدعوة لقضية استقلال بلاده ، إلا واستغلها أو تعرف عليها ، وقد سمع كثيراً وهو فى باريس عن الأستاذة جولييت آدم الصحفية والأدبية وصاحبة صالون أدبى معروف يجتمع فيه كل نجوم باريس ، وتصدر المجلة الجديدة ، وفى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ أرسل لها رسالة يقول فيها :

سيدتى .. إنى لا أزال صغيراً ولكن لى آمالٌ كبيرة فإنى أريد أن أُوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتى أنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى وأجعل حياتى وقفاً عليه ، إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة وقد نلت إجازة الحقوق من « تولوز » قبل سنة وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص الذى أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز ، وقد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالاً وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال ، فأعينينى يا سيدتى فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشد أزرى .. وتقبلى تحياتى ..» وبعد أن

تسلمت جولييت آدم الرسالة قابلت مصطفى كامل وتبنته هو ورسالته ، وأخذت تنشر له مقالاته ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر .. كذلك دعا مصطفى كامل النائب الفرنسى « ديلونكل » الذى عرف بعدائه لبريطانيا لزيارة مصر ، وفعلاً تمت الزيارة وخطب ضد الاحتلال فى القاهرة ، وهو تحدٍّ واضح للاحتلال ، وكان للزيارة أثرها الكبير فى الإعلام والصحف الأجنبية التى تناولت عدم مشروعية الاحتلال لمصر ، وكتب مصطفى كامل إلى مستر (جلادستون) رئيس حزب الأحرار البريطانى فى ذلك الوقت ، وكان قد اعتزل الوزارة يذكره بآرائه فى الجلاء عن مصر وبتصريحاته حين كان رئيساً للوزارة بأن بريطانيا لا تنوى أن تنقض عهدها فى الجلاء ، وقد رد عليه برسالة ودٍّ قال فيها .. « لقد وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين ..» واستغل الزعيم مصطفى كامل هذا الرد بعد ذلك فى هجومه على الاحتلال والتنديد به .

* فى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ حدثت مأساة دنشواى وحكم على بعض المواطنين المصريين الأبرياء بالإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والجلد ، وتم التنفيذ فى القرية نفسها بين عويل النساء وصراخ الأطفال ووجوم الرجال ، وقد زادت هذه الحادثة غضب الزعيم مصطفى كامل ونقمته على الإنجليز فشن فى باريس حرباً شعواء على الاحتلال الإنجليزى واللورد كرومر ممثلهم فى مصر ، وأوضح فظائع الاحتلال وقسوته وظلمه مما كان له أثر كبير فى الرأى العام الفرنسى والبريطانى واعتزل كرومر منصبه فى مصر ، وتزعزع موقف بريطانيا ، واستمر الزعيم فى دفاعه المستميت عن منكوبى حادثة دنشواى حتى صدر الأمر بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديوى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ .

هكذا كانت رسالة الزعيم مصطفى كامل ؛ لنا مطلب واحد هو الجلاء ، لا نبغى إلا الاستقلال ، مصر جنة الله فى أرضه ، وأشعل حماس

المواطنين والأجانب للوقوف إلى جانب مصر وتأييد استقلالها ، ونجح فى رسالته ، لأنه كان جاداً فى مطلبه ، واثقاً من نفسه ، متخصصاً فى القانون ، ليس له مطلب آخر فى الحياة ، لم يتزوج أو يعمل بوظيفة أو يتجه إلى ملذات الشباب ، بل كان الدفاع عن وطنه هو اللذة الأولى فى حياته ، كان ضعيف البنية قوى الشخصية ، عندما يراه الكتاب والصحفيين يدهشون فى البداية من هذه الشخصية الصغيرة ، لكنهم سرعان ما يقدرون تفكيره وثقافته ووطنيته المتأججة فيساعدونه بكل قوتهم ، فهو الزعيم الصغير الكبير ، رئيس الحزب الوطنى ورئيس تحرير جريدة اللواء ، جريدة الحزب .

كان مصطفى كامل يحلم بمصر المستقلة العظيمة ، فعاش يدافع عن استقلالها وحريتها ، وطالب بفتح جامعة لإتاحة الفرصة للمصريين لعمل دراسات عليا فى العلوم والرياضة والكيمياء والآداب ، وكان تشييد الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ ثمرة من ثمار كفاحه ، كذلك اهتم بالتعليم العام وفتح المدارس وإعداد المعلمين ، كما طالب بالاهتمام بالصناعة واحترام الصانع كما هو الحال فى أوربا .

فى اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٩٠٨ رحل مصطفى كامل وهو فى عمر الزهور ، ولم يبلغ بعد أربعا وثلاثين سنة ، ومع أن سنوات عمره كانت قليلة إلا أنها كانت كثيرة فى أعمالها وكفاحها وتحركها من أجل مصر ، فقد أحب مصر وملك عليه هذا الحب كل حياته فعاش من أجلها ، ومات من كثرة المعاناة الصحية ، وعدم الاهتمام بصحته ، وأكبر دليل على قيمة حياته وأهميته هو أننا نذكره دائماً كلما تذكرنا الوطنية الحقيقية والانتماء للوطن .



■ إن رقى الأمم مـرتبط برقى النسـاء فيـهـا فنحن إذا طالبنا بإصـلاح النسـاء ، فلسنا نؤثر أنفسنا على غـيرنا من عناصر الأمــة ، ولكننا نعــرف أن فى إصلاح المرأة إصلاح المجموع .

هدى شعراوى

تحرير المرأة

(١٨٧٩م-١٩٤٧م)

ما أجمـــــل أن تعيش من أجل فكرة معينة وقضية هامة تكرس كل وقتك واهتمامك وأموالك للوصول إلى حل لها ، وتسعد بالنضال وترحب بالمشاكل ، فالمهم فى النهاية أن تحقق لحياتك معنى ، وأن تترك بعد رحيلك بصمة .

رائدة المرأة العربية « هدى شعراوى » كانت كذلك اختارت قضية تحرير المرأة لتكون حلم حياتها ، فناضلت وكافحت وركبت الصعب فى سبيلها ، ولم ترفع الشعارات الرنانة وحسب بل عملت على تحويل الشعارات إلى أعمال ومشروعات ومدارس ومستشفيات وسفريات ومؤتمرات ، ونجحت بعد نصف قرن من الكفاح في رسالتها ، نجحت في أن تدفع الرجل إلى احترام نصفه الحلو .. المرأة .. وأن يعتبرها إنساناً كاملاً له كل الحقوق وعليه كل الواجبات ، واستطاعت بذلك أن تقضى على عصر الحريم .

ولدت نور الهدى محمد سلطان فى الثالث والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٧٩ فى أسرة كريمة عريقة تنتسب للطبقة العليا فى المجتمع ، فوالدها هو محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب وشورى القوانين ثم قائم مقام خديوى ، عرف عنه ميله إلى مجالس الأدب والعلم والكرم والوفاء والإخلاص ، والتمسك بشعائر الدين ،والشجاعة فى إبداء الرأى ، والرحمة بالناس ، وهو الذى كان وراء إلغاء نظام السخرة والكرباج الذى كان يعتبر وصمة فى جبين مصر . أما والدتها فقد كانت سيدة فاضلة عرفت تربى ابنتها على الصراحة والحرية وتبادل الآراء ، وكانت لها بمثابة الصديقة العزيزة .

ومن هنا يمكن لنا أن نعرف البيئة السليمة الصحية التى نشأت فيها نور الهدى منذ طفولتها ، فأحبت الناس وعشقت الحرية الشخصية ، وكرهت

الظلم ، واستخدمت عقلها فى نقد العادات والتقاليد البالية التى كانت منتشرة وقتذاك ، توفى والدها وهى فى الخامسة من عمرها ، فاهتمت والدتها بها اهتماماً كبيراً وشجعتها على قراءة وحفظ القرآن الكريم وقد ختمته وهى فى التاسعة ، فأقامت لها حفلاً خاصاً تلى فيه آيات الذكر الحكيم وتناول المدعوون طعام العشاء ، وكان أول يوم فرح بعد وفاة الوالد .

بدأت هدى بعد ذلك تتعلم اللغة الفرنسية ، واهتمت مدرستها الإيطالية الجنسية بها فعلمتها بجانب اللغة الموسيقى والعزف على البيانو ، كما تعلمت أيضاً اللغة التركية ،وعرفت وهى فى هذه السن الصغيرة أهمية القراءة ، فكانت تشترى الكتب خلسة حتى لا يراها أحد ، ولم تكتف بهذا بل دفعها حبها للقراءة والمعرفة إلى فتح خزانة كتب والدها وأخذت منها بعضها ، وأرادت أن تكون شاعرة فطلبت من سيدة شاعرة كانت تردد على بيتها أن تعلمها أصول الشعر ، وأشفقت عليها السيدة خديجة المغربية الشاعرة وحاولت شرح الممكن في هذه السن المبكرة ، وقد تعلمت هدى منها ليس الشعر وحسب وإنما شيئاً أهم من ذلك ، تعلمت أن المرأة الفاضلة تستطيع أن تتساوى بالرجل إن لم تفقه ، فقد كانت خديجة تحضر مجالس الرجال ، وتتباحث معهم فى أمور أدبية واجتماعية ، وربما تكون هذه الصورة هى التى دفعت هدى إلى الدفاع عن قضية المرأة بعد ذلك وضرورة تحررها واستقلالها ، فقد قارنت حال المرأة المؤسف الجاهل المتخلف مع الشاعرة خديجة الشخصية القوية الواثقة من نفسها .

كانت طفولة هدى - اشتهرت بهذا الاسم بعد ذلك - طفولة غنية بالوعى والثقافة والحوار الصريح مع والدتها ، والقراءة ، وعدم التسليم بالعادات والتقاليد ، وأعمال العقل فى كل الأفعال ، والنقد والدهشة ، لم تكن مجرد طفلة تتلقى الأشياء كما هى ، وتخضع للأوامر ، وتلهو

وتلعب ، بل إنها تريد أن تساهم وتشارك فى أعمال البيت على الرغم من سنها الصغيرة ووجود الخدم والعمال .. تقول هدى شعراوى فى مذكراتها « مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوى ، كتاب الهلال سبتمبر سنة ١٩٨١ ص ٥٦» تقول :

« أذكر من طفولتى أننى كنت أجد تسلية كبرى فى مشاركة مربياتنا فى أداء الأعمال المنزلية المختلفة مثل نظافة البيت وغسل الملابس . وكن فى البداية يتذمرن من اشتراكى فى هذه الأعمال ، ولكن عندما وجدننى جادة وراغبة ، اشترين لى طستا صغيراً للغسيل ..» .

كان من الممكن أن تشب هدى فى هذا المناخ الثرى الذى تتمتع فيه بالكماليات قبل الاحتياجات ، وبين الخدم والمربيات ، ووسائل الترفيه والراحة ، كأى فتاة مدللة وتصبح شخصية باهتة لاهم لها إلا الدلع والمرح والتمتع بمباهج الحياة ، لكنها كانت شخصية مختلفة عن ذلك فالقراءة شجعتها على السمو الفكرى والروحى ، وأخذت تنظر للعادات والتقاليد البالية نظرة ناقدة ، وأحزنها معاملة الولد بحب واحترام أكثر من البنت ، وأخذت تتساءل : ما الفرق الإنسانى بينهما ؟ وشعرت أن هذه القضية هى قضية حياتها ، أن تدفع المجتمع إلى احترام البنت مثل الولد ، فكلاهما مكمل لبعضه ، ولا يستطيع المجتمع أن يعيش على الرجال وحسب ، أو النساء وحسب ، وإنما الصحيح أن يعيش المجتمع بنصفيه كاملاً ، وحتى يتحقق ذلك لابد أن تترك المرأة عصر الحريم وتخرج إلى المجتمع وتتعلم وتحصل على حقها فى الانتخابات ، هذه كلها آمال داعبت هدى فى بداية حياتها ، وأصبحت رسالتها طوال حياتها .

عندما بلغت هدى الثالثة عشرة من عمرها تقدم للزواج منها ابن عمتها على شعراوى باشا الوصى عليها ، وكان يكبرها سناً ، بل كان متزوجاً وله

أبناء فى مثل سنها وأكبر ، ولم تعرف بالحقيقة إلا قبل الزواج مباشرة ، ولم يكن لها إرادة ورأى حتى تعترض ، وهى مازالت طفلة ، وكل ما فعلته أن استغرقت فى البكاء تعبيراً عن اعتراضها ، وتم الزواج وكان صدمة بالنسبة لها ، ومع ذلك رب ضارة نافعة ، فقد ساعدها ذلك فى الدفاع عن حقوق المرأة بعد ذلك ورفع سن الزواج للفتاة إلى ١٦ سنة على الأقل .

اتخذت هدى بعد ذلك من اسم زوجها لقباً لها فأصبح اسمها المعروف هدى شعراوى ، واحتفظت به طوال حياتها .

حاولت الزوجة الطفلة أن تتأقلم مع الوضع الجديد وتتفاهم مع زوجها الذى قام بدوره بالتودد لها ، وما هى إلا سنة ونيف حتى بدأ زوجها يعاملها معاملة جافة ويتحكم فيها ، واكتشفت والدتها أنه عاد إلى زوجته الأولى على الرغم من تعهده بأن تكون هدى زوجته الوحيدة ، وأصرت الأم على الطلاق الذى استمر سبع سنوات .

استغلت هدى سنوات الطلاق وتمتعها بالحرية فى العودة إلى دروس اللغات العربية والفرنسية والموسيقى والتثقيف الذاتى ، والقراءة والشعر ، والعزف على البيانو وحضور عروض الأوبرا والسفر إلى الإسكندرية للتمتع بالهدوء وهواء البحر المنعش ، وأخذت تخرج لشراء احتياجتها بنفسها ، وهو ما كان غريباً فى ذلك الوقت .

بدأت هدى شعراوى نشاطها الوطنى سنة ١٩٠٧ عندما دعت النساء للتبرع لإنشاء جمعية لرعاية الطفل ، وبعد جمع التبرعات لبدء المشروع أسرعت الحكومة لفشل المشروع خوفاً من أن تصبح هدى مركز قوة للنساء والمجتمع ككل ، ولكن هدى لم تيأس بل قامت فى سنة ١٩٠٨ بدعوة الكاتبة الفرنسية « مرجريت كليمان » لإلقاء سلسلة محاضرات ثقافية على السيدات فى مصر حتى تفتح أذهانهن على تيارات الفكر الحديث فى

أوروبا ، وكان الإقبال على هذه المحاضرات دليلا على تعطش المرأة المصرية للثقافة والحرية ، والتفت الجميع إلى هذه السيدة النشطة هدى شعراوى ، وتجمع حولها كل السيدات المتحمسات للخدمة فى المجال الاجتماعى ، ففى عام ١٩١٠ أرادت الأميرة « عين الحياة » إنشاء مبرة محمد على من خلال التعاون المثمر بين أميرات الأسرة المالكة وسيدات الطبقة الأرستقراطية ، بهدف علاج الأطفال من الأوبئة والأمراض ، ولم تجد الأميرة « عين الحياة » سوى هدى شعراوى لتضع المناهج والخطط ، وانتهزت الأخيرة الفرصة فطلبت من الأميرة إنشاء مدرسة لتعليم البنات فوافقت فى الحال .

شعرت هدى شعراوى بآلام الطبقة الكادحة ، وما تعانيه من تخلف وجهل وفقر ، وبخاصة المرأة ، وآمنت بأن دورها كواحدة من الطبقة الراقية أن تعمل بجد وإخلاص فى سبيل النهوض بتلك الطبقة ، وأن التعليم والثقافة وخروج المرأة ضرورة لتحقيق هدفها ، فأسست فى مايو سنة ١٩١٤ « جمعية الرقى الأدبى للسيدات المصريات » و « جمعية المرأة الجديدة » ، وكان هدف الجمعيتين تنمية القدرات العقلية والمواهب الفنية والكفاءات الرياضية للفتيات والسيدات ، واستغلال وقت فراغهن فيما ينفع ، وإلقاء المحاضرات عليهن فى شتى العلوم والفنون والآداب ، والشئون الصحية ورعاية الأطفال ، وإدارة المنزل وإعداد الطعام وغير ذلك .

إيماناً برسالتها ودورها الاجتماعى فى النهوض ببلادها وحباً فى مصر وتأميناً لمستقبلها ، أرسلت هدى شعراوى الشباب من الجنسين فى بعثات إلى الخارج للتعلم والاستنارة والحصول على الدرجات العلمية على نفقتها الخاصة ، وهو ما يدل على عظيم انتمائها لمصر .

فى سنة ١٩١٩ قامت الثورة المعروفة ضد الاحتلال الأجنبى واشترك فى الثورة كل طوائف الشعب ، ووجدت هدى شعراوى الفرصة فى

المشاركة فى العمل السياسى فجمعت السيدات فى منزلها وخرجن بالحجاب فى مظاهرة نسائية هى الأولى من نوعها ، وكن يركبن سياراتهن الخاصة حاملات أعلام مصر ، وعندما شهدت بنت البلد المرأة المصرية ، سيدات الطبقة الراقية يشتركن فى المظاهرة ، اجتمعت وقررت الاشتراك أيضاً فركبن العربات الكارو وسارت فى المظاهرة ، وأخذن يرددن .. يحيا سعد .. وظلت السيدات ثلاث ساعات محاصرات تحت أشعة الشمس المحرقة ، وأنشأت هدى « لجنة الوفد المركزية للسيدات » بالتعاون مع زوجات زعماء الوفد ، واستطاعت هذه اللجنة أن تعبر عن رأى المرأة المصرية فى الأحداث والاحتجاج على العنف مع المواطنين ، والمطالبة بعودة سعد زغلول ، وتحقيق الاستقلال ، وإعلاء شأن الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين ، ولم تكن هذه المظاهرة الوحيدة التى اشتركت فيها المرأة المصرية ، بل كانت هى الأولى ، وفى سنة ١٩٢٠ سارت مظاهرة نسائية أخرى من ميدان باب الحديد إلى عابدين هاتفة ضد الاستعمار ومتصدية للجنود الإنجليز المحتلين ، وركبت النساء العربات والترام وهن يصحن .. « يسقط ملنر » ، كان اشتراك المرأة المصرية فى مظاهرات ثورة سنة ١٩١٩نقطة تحول فى طريق كفاح مصر ضد الغاصب المعتدى ، إذ أصبح المجتمع كله يعبر عن استيائه منه ، ولم يعد نصف المجتمع فقط الذى يستطيع التعبير ، وحتى الصحف الأجنبية والإنجليزية بالذات كتبت عن هذه الظاهرة الجديدة فى المجتمع المصرى ، وهى خروج المرأة للمشاركة فى التعبير عن غضبها من الاحتلال ، ومطالبتها بالاستقلال .

فى عام ١٩٢٠ وجه الاتحاد النسائىالدولى ،ولأول مرة دعوة إلى هدى شعراوى لحضور وفد نسائى مصرى للمشاركة فى مؤتمر المرأة العالمى فى جنيف ، ولم تسمح ظروف السيدة هدى فى تكوين وفد نسائى ، والسفر إلى الخارج فى ذلك الوقت .

كانت سنة ١٩٢٣ سنة هامة بالنسبة لكفاح هدى شعراوى فقد تلقت دعوة لحضور مؤتمر روما النسائى الدولى ، ففكرت جيداً فى قبول الدعوة ، وانتهزت الفرصة وأنشأت فى ١٦ مارس « الاتحاد النسائى المصرى » من أعضاء لجنة الوفد المركزية للسيدات ، والتى كان قد انتهى هدفها ، وتم الاعتراف رسمياً بهذا الاتحاد ، وقد وضع أهدافاً له ليست خاصة بالمرأة فقط ، بل بالسياسة عامة ، وكان من أهداف الاتحاد النسائى المصرى .

العمل من أجل استقلال مصر والسودان التام ، التمسك بحياد قناة السويس وفقاً للمعاهدات الدولية ، إلغاء الامتيازات الأجنبية والقوانين الاستثنائية ، تعديل الدستور واحترام سلطة الأمة وسيادتها ، نقل قيادات الجيش إلى الأيدى المصرية والعمل على إعدادها الإعداد المناسب .

تدعيم الديمقراطية السياسية ، ومنح المرأة حق الانتخاب ، نشر التعليم الابتدائى الإلزامى ، وإتاحة الفرصة للفتيات للتعليم الثانوى والعالى ،وزيادة عدد البعثات الدراسية للخارج ، تشجيع حركة الترجمة لنشر الأفكار الجديدة وإثراء المكتبة المصرية بأحدث الكتب العلمية والأدبية ، الاهتمام بتدريس القانون والموسيقى فى المراحل المختلفة من التعليم لبث روح التذوق عند التلاميذ ، تشجيع الصناعة المحلية ، وحمايتها من المنافسة الأجنبية ، محاربة المسكرات والمخدرات ، وضع قانون يمنع تعدد الزوجات ، ويحافظ على حقوق المرأة ، ويمنع الطلاق إلا أمام القاضى ..

هكذا كانت أهداف الاتحاد النسائى المصرى برئاسة هدى شعراوى أشبه بدستور يعنى بمصر سياسياً واجتماعياً وتعليمياً وثقافياً .

استعدت هدى شعراوى واختارت وفداً نسائياً مكوناً من سيزا نبراوى ، ريجينا خياط ، مدام ويصا واصف ، نبوية موسى ، وسافرن برئاستها إلى مؤتمر روما ، وهناك طلبت هدى من طلاب البعثة المصرية

صناعة علم ثورة ١٩١٩ الذى يتعانق فيه الهلال مع الصليب ، وبالمصادفة كان العلم كبيراً جداً ، واهتمت إدارة المؤتمر بوضعه على يسار المنصة معادلا للعلم الإيطالى احتراماً لمصر وحضارتها العظيمة .

استطاع وفد مصر النسائى شد انتباه واهتمام وفود الدول المختلفة إلى المرأة المصرية المتعلمة المثقفة ، بل كن يعتقدن أن مصر تعيش عصر الحريم ، الذى فيه لا تملك المرأة حريتها ولا مصيرها ، واهتم الاتحاد النسائى الدولى بعد ذلك بدعوة مصر للمشاركة فى كل المؤتمرات النسائية الدولية .. وأثناء عودة الوفد النسائى المصرى من مؤتمر روما ، اقترحت سيزا نبراوى على هدى شعراوى أن تنتهز فرصة وصول الوفد إلى القاهرة لرفع الحجاب فوافقتها هدى ، وبخاصة أن زوج ابنتها محمود سامى باشا شجعها على ذلك موضحاً أن الحجاب تقليد لا يستند إلى قانون ، وفى القطار من الإسكندرية إلى القاهرة رفعت هدى شعراوى وسيزا نبراوى الحجاب ، وفى محطة مصر خرجن من القطار سافرات الوجه ، وقلدتهن السيدات المستقبلات ، وصدرت الصحف فى اليوم التالى بصورهن سافرات ، وكان من الصعب على المجتمع أن يتقبل هذا السفور ببساطة فثار البعض ، ولكن كفاح هدى شعراوى وجديتها ودورها القيادى الاجتماعى السياسى ، دفع الجميع إلى الاقتناع برفع الحجاب عن وجه المرأة المصرية .

فى العام التالى ١٩٢٤ اشتركت المرأة المصرية فى مؤتمر « جراتس الدولى بالنمسا » وألقت هدى شعراوى خطاباً باللغة الفرنسية طالبت فيه الحكومات بإغلاق بيوت البغاء فى بلادها حفاظاً على النساء والأطفال .

تعددت المؤتمرات التى اشتركت فيها المرأة المصرية بعد ذلك واستطاعت أن تثبت جدارتها وارتقائها ودورها الاجتماعى فى تقدم بلدها ، فاشترك وفد مصر النسائى فى مؤتمرات باريس ، مؤتمر امستردام ،

مؤتمر برلين ، مؤتمر مرسيلياً ، وفى مؤتمر اسطنبول سنة ١٩٣٥ انتخبت هدى شعراوى نائبة لرئيس الاتحاد النسائى الدولى بأغلبية ١٤٨ صوتاً من بين ١٦٦ صوتاً، وكانت أول سيدة شرقية تنال هذا اللقب الدولى المشرف ، وظلت محتفظة بهذا المنصب الدولى حتى وفاتها سنة ١٩٤٧.

لم تنس هدى شعراوى انتمائها العربى ، ومن هنا عملت على إقامة الاتحاد النسائى العربى ، الذى خرج إلى الوجود سنة ١٩٤٤ قبل إنشاء جامعة الدول العربية .

وكان لسان حالها والمعبر عن آرائها مجلة « الأجيبسيان » باللغة الفرنسية ، و « المصرية » باللغة العربية ، وقد أصدرتهما فى السنوات بين ١٩٢٥ إلى ١٩٤٥ ، وكانت المجلتان بؤرة علم ونور للمرأة المصرية لدفعها إلى التعلم والثقافة والتحرر ، كما حاولتا الرقى بالذوق العام عن طريق الفن بشتى ألوانه .

استطاعت هدى شعراوى أن تكشف بحسها السياسى ما يمكن أن يحدث لفلسطين ، فدعت سنة ١٩٣٨ إلى إقامة مؤتمر نسائى عربى فى القاهرة لمعالجة قضية فلسطين ، وعقد المؤتمر وكان مؤتمراً تاريخياً اشتركت فيه القيادات النسائية العربية ، وعبر عن خطورة القضية . وقبل رحيلها أرسلت هدى شعراوى إلى الأمم المتحدة احتجاجاً على قرار تقسيم فلسطين ، قالت فيه :

« إن نساء مصر والشعوب العربية يعتبرن هذا العمل جريمة لميثاق الأمم المتحدة وسابقة خطيرة ، وفألاً سيئاً للمستقبل ..» .

هكذا كانت هدى شعراوى شعلة مضيئة من أجل أبناء مصر ، وبخاصة النساء ، ومن أجل استقلال مصر ، ومن أجل ربط المرأة المصرية

بركب الحضارة العالمية ، وكان من الطبيعي أن تلقى احترام الجميع فى الداخل والخارج ، فقد بذلت كل ما يمكن أن تعطيه من مال وجهد ووقت وصحة ، واهتمت بالجميع ، الأطفال والنساء والشباب والشيوخ ، وقد منحها الملك فاروق الوشاح الأكبر من نيشان الكمال ، ومنحها رئيس الجمهورية اللبنانية ميدالية الاستحقاق اللبنانى الذهبية الفخرية ، ومنحها رئيس جمهورية سوريا نيشان الاستحقاق السورى الممتاز من الدرجة الأولى .

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا هو : هل نالت هدى شعراوى رائدة المرأة العربية ما تستحقه من تكريم ؟ والإجابة على لسان الأستاذ نبيل راغب فى كتابه عن هدى شعراوى وعصر التنوير ..يقول :

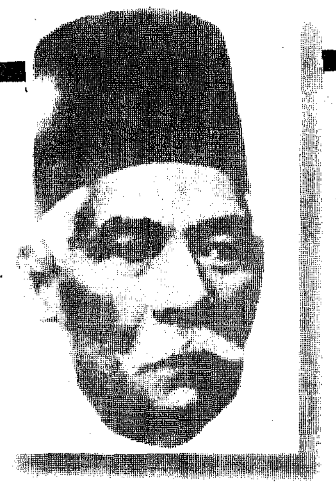
« .. إن هذه الرائدة لو عاشت فى بلد آخر لأقيمت لها التماثيل فى الميادين ، وكتبت عنها عشرات الكتب ، وأصبحت تراثاً حياً فى كل مجالات التعليم والتثقيف ..» .

عندما أسمع نداءات التخلف لعودة المرأة إلى البيت ، وعدم تعليمها ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ، أشعر بأسف شديد ، وأقول لهدى شعراوى : معذرة لأن أبناءك وأحفادك لم يصونوا الأمانة ، ولم يطوروا الرسالة ، وبدلاً من أن يعملوا على زيادة حقوق المرأة حتى تتساوى فعلاً بالرجل ، يأملون فى عودة عصر الحريم ، فى ردة حضارية متخلفة ..

عفواً سيدتى هدى شعراوى

ولكن كفاحك وجهادك وحبك وانتماءك لمصر لن يضيع هباءً ، فالحقيقة قد تنام ولكنها لن تموت .





■ « أن سعدا ليس لكم وحدكم
ولكنـــه لنـــا أجمعـــين »
« المهاتما غاندى »

سعد زغلول
الزعيم الشعبى

(١٨٦٠م - ١٩٢٧ م)

هناك نظريات كثيرة مختلفة عن فن الزعامة وشخصية الزعيم ، بعضها يهتم بالجانب الجسمى للزعيم فيعتبر الزعيم الرجل الطويل الضخم صاحب الصوت الجهورى ، القوى ، وبعضها الآخر يهتم بعقل الزعيم وثقافته وقدرته على التصرف فى المواقف المختلفة من خلال دراسته للتاريخ والسياسة ، أما البعض الثالث فيهتم بالحالة الاجتماعية للزعيم والطبقة التى خرج منها ، وكلما كان من الطبقة الشعبية كلما كان أقرب إلى حياة الشعب وطموحة ومعاناته ، وهناك نظرية أخرى تقول بالإلهام ، فالزعيم الحقيقى هو الذى يشعر بالإلهام بآلام شعبه ومشاكله وأمنياته ، ويحاول تحقيق الآمال ووضع شعبه على الخريطة العالمية المناسبة .

غير أن الإلهام الحقيقى ، غير الإلهام المصطنع فهناك زعماء يطلقون على أنفسهم لقب « الزعيم الملهم » وهم أبعد ما يكونوا عن الإلهام ، أو حتى صفات الزعامة البسيطة ، بل هم أبعد ما يكونون عن صفات الزعيم ، ولكن الظروف تفرضهم على شعوبهم فتكون المصيبة .

الزعيم سعد زغلول جمع أكثر من صفة من صفات الزعامة ، خرج من بين الفلاحين فهو واحد منهم ، وتمتع بقدرات كثيرة فى جمع الناس والتأثير فيهم ، بل كان البعض يبكى عندما يسمعه ، وكان بيته بيت الأمة مفتوحاً لكل إنسان ، أما ثقافته فكانت عالمية عصرية ، آمن بتحرير المرأة ، وضرورة نشر التعليم ، وكانت قضية حياته تحقيق الاستقلال لمصر عن كل من تركيا وانجلترا ، وفى سبيل الوطن وقضية الوطن ، نفى وشرد وتعذب ولكنه لم ينثن عن هدفه ، وظل زعيما شعبيا ثائراً قبل الوزارة ، ودفعته هذه الزعامة إلى مقعد الوزارة ، ثم إلى مقعد رئيس مجلس الوزراء ، وبعد أن ترك المناصب الرسمية ظل زعيما شعبيا ثائرا شابا وهو فى الستين من عمره ، وبعد الستين .

ولد الزعيم سعد زغلول فى أول يونيو سنة ١٨٦٠ فى قرية « ابيانة » بمحافظة الغربية ، كان أبوه الشيخ إبراهيم زغلول عمدة القرية ، وأمه السيدة الفاضلة ابنة الشيخ عبده بركات من أسرة عريقة .

ورث سعد من أبويه والبيئة التى ولد فيها القيم الأخلاقية الريفية الرفيعة ، قوة الشخصية ، الصبر ، صدق العزيمة ، الإيمان بالله ، الثورة على الظلم ، حب الناس وخدمتهم ، الشجاعة فى القول ، مساعدة الضعيف ، الكرم وغيرها .

توفى والد سعد وهو فى السادسة من عمره فعنى أخوه الأكبر بتربيته ، وألحق سعدا بكتاب القرية حتى بلغ الحادية عشرة من عمره ، ثم انتقل إلى الأزهر الشريف ، وكان من حسن حظه أن التقى هناك بالشيخ الإمام محمد عبده ، رجل الدين المستنير ، والمصلح الدينى الكبير ، الذى علمه الإسلام الحقيقى البعيد عن المغالاة والتطرف ، والحضارة الإسلامية الرائعة التى تستوعب كل الحضارات وتتفاعل معها ، كما عرف سعد طريقه إلى بيت المصلح الدينى الكبير جمال الدين الأفغانى ، وتعلم على يديه أن الإنسان هو أسمى المخلوقات ويجب أن يتحلى بالعقل الذى أهداه الله له ، فيغذيه بالثقافة والمعرفة ، ويعمله فى كل شىء ، كذلك تعلم سعد من أستاذه آن الحرية هى أثمن ما يملكه الإنسان ، وعليه أن يدافع عنها طوال حياته ، سواء كانت حريته الشخصية ، أو حرية وطنه ، فالحرية لا تتجزأ ، وعلى كل إنسان أن يضحى من أجلها ، ويقاوم الظلم والاستبداد حتى يصبح انسانا بمعنى الكلمة .

هكذا أقبل الفتى سعد زغلول على الحياة وهو مسلح بالقيم الدينية والأفكار العصرية ، بالإضافة إلى المواهب الشخصية فى حب الناس والقدرة على التأثير فى الجماهير ، ومعرفة أوجاعهم وآمالهم .

اشترك سعد فى تحرير صحيفة الوقائع المصرية مع استاذه الشيخ محمد عبده ، وكانت كتابته ضد الظلم والفساد والاستعمار وضرورة الاستقلال ، واتهم بتأليف جمعية سرية باسم « الانتقام » بعد أن شاهد بعينه هزيمة العرابيين وانتصار الإنجليز ، وحكم عليه بالسجن بسبب هذه التهمة ، وخسر وظيفته وأصبح فى قائمة أنصار عرابى باشا ، وهى القائمة السوداء عند الخديوى .

يقول الدكتور علاء الحديدى فى كتابه (مصطفى النحاس دراسة فى الزعامة السياسية المصرية) :

« التغيير الحقيقى فى حياة سعد زغلول بدأ مع مزاولته لمهنة المحاماة ، التى كانت حديثة فى ذلك الوقت ولا تحظى بأى إهتمام أو احترام ، ولكنها بدأت تشق طريقها مع استعداد المحاكم المختلطة مع الامتيازات الأجنبية وظهور القوانين الوضعية بجانب الشريعة الإسلامية . وقد عين سنة ١٨٩٢ نائب قاض بمحكمة الاستئناف ، ثم درس القانون الفرنسى وحصل على الليسانس فى عام ١٨٩٧، وكانت هذه التحولات مقدمة لدخوله الطبقة الحاكمة المصرية » لم يكن سعد زغلول يكتفى بعمله كمحام أو نائب قاض بل كان طموحا فى الدراسة ، والوصول إلى أعلى المراكز ، مادامت دراسته واستعداده ومواهبه تؤهله لذلك ، وكان يتردد على صالون الأميرة شويكار ، وهناك تعرف على ابنة مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس وزراء مصر فى فترتين ، الأولى من عام ١٨٩١- ١٨٩٣، والثانية من عام ١٨٩٥ وحتى عام ١٩٠٨ وتعتبر أطول فترة رئاسة لوزارة فى تاريخنا الحديث ، ثم تزوج سعد بابنة رئيس مجلس الوزراء ، وفى عام ١٩٠٦ أصبح وزيرا للمعارف فى وزارة بطرس غالى ، ثم وزيرا للحقانية - وزارة العدل حاليا - وفى عام ١٩١٢ قدم استقالته من الوزارة .

وقبل أن نتحدث عن استقالته من الوزارة نجيب على سؤال مهم يتردد على ألسنة الدارسين لتاريخ سعد وحياته وهو .. كيف وصل سعد إلى الوزارة ؟ هل ترك الزعامة الشعبية والمواقف الوطنية التى أدت إلى دخوله السجن وفقده لوظيفته وقرر أن يساوم حتى يصبح وزيرا من رجال الحكومة ؟

يجيب الدكتور علاء الحديدى على هذا السؤال فيقول : « أدرك سعد زغلول بفطنته السياسية ، أين موطن القوة ، وقرر أن ينضم إليها بدلا من أن يدخل معها فى صراع لاجدوى منه ، وأنه لا سبيل لكبح جماح هذه السلطة الغاشمة إلا بمحاربتها من داخلها لا بالثورة عليها من الخارج ، وهو فى هذا لا يختلف كثيرا مع آراء حزب الأمة الذى كان قد كون مدرسة فكرية فى الحياة السياسية المصرية »

نستطيع القول بأن سعد زغلول لم يتنازل عن رسالته الوطنية ، وزعامته الشعبية ، وحلم حياته فى الاستقلال والديمقراطية وتحقيق الحياة النيابية السليمة ، وإنما و كسياسى محنك ، وزعيم شعبى لا يهمه إلا مصلحة شعبه حاول أن يناور الطبقة الحاكمة ، والاستعمار الانجليزى ، ويتقرب منهما حتى يحقق أهدافه ، وأكبر دليل على ذلك هو موقفه من قضية مد امتياز قناة السويس ، إذ ترك الرأى الأخير للمجلس الاستشارى النيابى - مجلس الشعب حاليا - وأعلن بذلك أن الحكم فى قضية مصيرية مهمة كهذه لابد أن يؤخذ فيه رأى الشعب ، وهذه هى الديمقراطية الحقيقية .

على الرغم من اقتحام سعد زغلول للطبقة الحاكمة ، واعتباره واحدا منها ، إلا أنه كان يفخر بكونه فلاحا ابن فلاح ، بل كان يقول : أفتخر بأنى من الرعاع مثلكم . يقول الدكتور محمد أنيس ، والدكتور السيد رجب حراز فى كتابهما « ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢» :

« لقد أحس سعد زغلول بقوة الطبقات الشعبية وصدق ثوريتها وعبر بنفسه عن ذلك الاحساس فى كتابه الذى ألقاه فى الرابع من شهر يوليو سنة ١٩٢٤ فى حفل عمال شركة السكك الحديدية وواحات عين شمس إذ قال :

أفرح كثيرا وأسر كثيرا كلما شعرت أن هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط ، بل هى منبثقة أيضاً وعلى الأخص فى الطبقة التى سماها حسادنا طبقة الرعاع ، وافتخر بأنى من الرعاع مثلكم ، فطبقة الرعاع هى الطبقة الأكثر عددا فى الأمة ، والتى ليس لها صالح خاص ، والتى مبدؤها ثابت على الدوام : مبدؤها الاستقلال التام لمصر والسودان ..»

هكذا كانت زعامة سعد الشعبية ، وارتباطه بالجذور واعتزازه بأصله الريفى ، ومن هنا رشح نفسه فى انتخابات مجلس شورى القوانين ، وفاز فى دائرتين من دوائر القاهرة الأربع ، الأكثر شعبية وازدحاما وهما ، دائرة السيدة زينب ، ودائرة بولاق ، هذا على الرغم من معارضة اللورد كتشنر .

قلنا أن سعد زغلول عمل وزيرا للمعارف ، ثم وزيرا للحقانية ، وفى سنة ١٩١٢ قدم استقالته من الوزارة ، وهنا يبرز سؤال هام .. كيف حاول سعد أن يصبح من الطبقة الحاكمة ؟ ونجح فى ذلك .. ثم يستقيل بعد هذا النجاح .. ماهو سبب الاستقالة إذن ؟ يقول أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى كتابه « قصة حياتى » :

« استقال سعد زغلول وترك الوزارة بين الثناء والإِعجاب ، وألقى درسا نافعا للحاكمين والمحكومين على السواء ، فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الأمة بأسرها واستحسانها ، ولا معنى لإِجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بكل ما عهدناه لوزير غيره عند تعيينه إلا

ليكون ناصرا للأمة ، مدافعا عن الحق متشدداً فيه .. كان سعد قد دخل الوزارة ليمثل فيها طبقة المتعلمين الأحرار الذين ليس على عقولهم سلطان إلا الحق ولا على قلوبهم إلا حب الوطن ونفعه ، فحقق فى المعارف سلطة المصرى ، وملأ كرسى الوزير ، وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوى بين الموظفين الأجانب والوطنيين ، وحقق آمال الأمة فى أكثر ما طلبت ، فجعل التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم هى لغة الامتحان ، وأعاد عهد البعثات ، وجعل للنظامات المدرسية قوانين لابد من عرضها على مجلس شورى القوانين ، إلى غير ذلك من المشروعات التى أعادت إلى المعارف عهد وزيرها المرحوم على مبارك باشا . وكان من أعمال سعد إنشاء مدرسة المعلمين ، ومدرسة القضاء الشرعى التى وجد فى انشائها صعوبات جمة كانت محكا لشجاعته الأدبية ، وقدرته الوزارية ودهائه السياسى ، فلما تولى وزارة الحقانية لم يفرط فى حقه بصفته وزيرا ، ولم يكن فيها بأقل غيرة على إقامة العدل منه فى نظارة المعارف على نشر التعليم حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديوى والإنجليز منه .. وقد اتهم سعد فى استقالته بأنه قد تقصه الدهاء اللازم للوزير لإرضاء السلطة . وهى تهمة عجيبة . على أنه نجح كثيراً فى حمل السلطة على الرضا برأية وتحقيق مشروعاته .. ومهما قيل فى ذلك الزمان من أن الوكالة البريطانية كانت تعضده ، فمن المحقق أن الرجل كان فى كل أعماله لا يخالف اعتقاده بل كان يدافع عن رأيه أمام السلطة الشرعية والسلطة الفعلية حتى أنه لما اتفقا معا عليه لم يتحول عن موقفه ، وفضل الاستقالة المشرفة التى قال عنها بعضهم أن استقالته تعتبر استقاله للوزارة .»

هذه شهادة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى الزعيم سعد زغلول ، وهى أن دلت على شىء انما تدل على شعبية الرجل ، واهتمامه بالتعليم

فتح المدارس ، واللغة العربية ، والمساواة بين المصريين والأجانب ، الشجاعة فى القول ، وعدم الاهتمام بالمركز الذى يحتاج إلى الخنوع الخضوع حتى لوكان مقعد الوزارة .

اشتعلت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤، ولم تكن لمصر أى بلة بهذه الحرب ، ومع ذلك أعلنت انجلترا الأحكام العرفية فى مصر ، تعطيل مجلس شورى القوانيين ، واعتقلت المواطنين ، وبخاصة رجال لحزب الوطنى ، وسخرت مرافق البلاد لمصلحتها ، كما فرضت نظام تطوع الإجبارى فى الجيش على الفلاحين ، ولم تكتف انجلترا بكل لك ، بل أعلنت فرض الحماية على مصر فى أغسطس سنة ١٩١٤، هى أولى خطوات الاحتلال البريطانى الذى استمر فى مصر أكثر من ربع ن .

وبمجرد أن انتهت الحرب سنة ١٩١٨ تحرك المصريون لتحقيق هدفهم ى الاستقلال ، فطلب رئيس وزراء مصر السفر إلى بريطانيا لمناقشة المسألة لصرية مع الجانب البريطانى ، فى نفس الوقت الذى أخذ فيه سعد زغلول نوم بتشكيل الوفد المصرى ، بهدف سند الوفد الحكومى ، ويقول الدكتور بد الخالق لاشين فى كتابه « سعد زغلول ودوره فى السياسية المصرية » :

« وقفت السلطات البريطانية فى وجه كل من هذين التحركين معا ، ن وأكثر من ذلك نجحت فى التفريق بينهما إلى حد كبير »

ساعدت الظروف السياسية على تألق حزب الوفد وبخاصه إذ أن لحزب الوطنى كان مريضا ، فزعيمة محمد فريد تقى فى أوروبا ومات ناك فى سنة ١٩١٩، وكانت الدول الأوروبية كلها قد اعترفت بالحماية بريطانية على مصر ، أما الضربة القوية القاسمة للحزب الوطنى فكانت كوين الوفد المصرى واعتباره الممثل الشرعى الوحيد للحركة الوطنية

المصرية من رجال حزب الأمة ، بعد أن فشل الحزب الوطنى فى أن يجعل منه (وفده) الممثل للحركة الوطنية المصرية ، وكان اختيار سعد زغلول لرئاسة الوفد بمثابة تنازل الحزب الوطنى عن العمل فى المجال الوطنى ، وترك هذه المهمة لحزب الأمة وسعد زغلول .

كان هدف الوفد تحقيق الاستقلال التام لمصر بالطرق الشرعية والسلمية ، كما كانت مهنته تنتهى بتحقيق الاستقلال ، لأن تكوينه كان لتمثيل الأمة كلها فى طلب الاستقلال وحسب ، ولإسماع أوروبا شكوى الشعب المصرى وتضرره ومعاناته من الحماية البريطانية . ألقت السلطات القبض على الزعيم سعد زغلول ، ورفاقه إسماعيل صدقى باشا محمد محمود باشا ، وحمد الباسل باشا ، ونفتهم فى جزيرة مالطة ،

وأرادت السيدة صفية زغلول زوجة الزعيم سعد أن تلحق به فى منفاه لتكون بجانبه فى محنته ، وبسرعة أعدت نفسها واشترت تذكرة السفر بالباخرة ، وقبل تحديد موعد السفر ، فوجئت بوفد من سيدات طنطا يطرق بابها ، وهو يحمل لافتة تقول :

« عائشة أم المؤمنين .. وصفية أم المصرين »

يقول الأستاذ أحمد زكى عبد الحليم فى كتابه « نساء فوق القمة » :

« هذا الحادث كشف للسيدة صفية زغلول اين يجب أن يكون مكانها ، فعدلت عن السفر ، وقررت أن تبقى إلى جانب الثورة والثوار ، ثم أنها تجاوبت مع التيار الشعبى العارم ، وكشفت عن شخصية قيادية عظيمة ، لدرجة أنها كانت ترأس اجتماعات الوفد ، وكانت تلتقى بقيادات الحركة الوطنية ، وكانت وراء البيانات والمنشورات التى تصدر

معبرة عن ثورة شعب مصر . ولذلك فقد قيل عنها بحق في ذلك الوقت : أنها لو كانت رجلا ، لقادت الأمة في هذه الثورة الشعبية ..»

لم يهدأ سعد زغلول ، أو يركن إلى الراحة ، بل كان أول عمل قام به في منفاه هو كتابة رسالة إلى رئيس مجلس الوزراء الانجليزى يكرر فيها مطالب الأمة المصرية التى يمثلها هو ورفاقه ، والتى نفى من أجلها إلى هذا المكان ، وكان بذلك يعبر عن صلابته وعناده ، وعدم اكتراثه بالنفى ، كتب سعد زغلول يقول إلى رئيس مجلس وزراء انجلترا : « إن شرف الممالك يقدر بمقدار احترام ساستها ورجالها للمعاهدات السياسية التى يبرمونها والتصريحات الرسمية التى يفوه بها رجال تلك الحكومة الرسميون . ولما كانت انجلترا فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ قد ضمنت استقلال مصر . كما أقسمت الملكة فكتوريا والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢ أن الاحتلال لن يكون إلا وقتيا وأعلن جلادستون عام ١٨٨٧ أن أوان الجلاء عن مصر قد آن ، ولما كنتم جنابكم الرئيس الممثل لحكومة جلالة ملك بريطانيا ، والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الأمة الانجليزية الحرة فانى أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التى أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسرا لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادى النيل ، احتراما للمعاهدات والتصريحات التى ذكرناها وصيانه لشرف أمة أنت على رأس حكومتها ، وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر أن سياسة العنف والارهاق التى أتبعت معنا لا تزيدنا نحن المصريين كافة إلا تمسكا بمطالبنا ، وثباتا فى موقفنا ..»

إحتارت انجلترا مع هذا الزعيم الشعبى سعد زغلول ، تنفيه من بلده ، ولكنه لا يصمت ولا يهدأ ، فهو صاحب رسالة ائتمنه عليها الشعب ، وهى الاستقلال . لم يمر حادث نفى سعد ورفاقه مرّ الكرام ، بل كانت نتيجتة قيام الثورة العارمة من الطلبة والباعة وسائقى الترام والعربات الكارو ،

ورجال الدين الإسلامى والمسيحى ، وكل طوائف الشعب ، بل أن المرأة التى كانت محجبة فى ذلك الوقت ، شاركت ولأول مرة فى المظاهرات ، وكان المتظاهرون يهتفون بالاستقلال .. ويحيا سعد .. فهو رمز الاستقلال فى نظرهم ، ولاول مرة سمع أيضا « عاش الهلال مع الصليب. » وكان القسوس يخطبون فى المساجد ، والشيوخ فى الكنائس ، وأخذت الثورة معناها القومى الوطنى ، الكل يريد الاستقلال ، والإفراج عن الزعيم سعد زغلول ورفاقه ، الممثلون عن الأمة فى شكل وفد يعبر عن آمال ملايين الجماهير .

وكان رد فعل السلطة البريطانية قاسيا ، فأمرت رجالها باطلاق النار على المتظاهرين دون التفرقة بين الرجال والنساء ، أو الشيوخ والشباب والأطفال ، واستشهد الكثير ، والعنف يولد دائماً العنف ، من هنا ازدادت الثورة اشتعالا ، وقطع المتظاهرون أسلاك التليفون والتلغراف ، وهاجموا بعض أقسام الشرطة ، واستولوا على مافيها من الأسلحة ، وحطموا عربات الترام والأتوبيسات والسيارات ، ولم يجد المستعمرون بدا من التسليم ، والإفراج عن زعيم الشعب ورفاقه بعد أقل من شهر من إلقاء القبض عليهم ، وسمح للوفد للسفر إلى أوروبا ، وكذلك لزملائهم فى القاهرة ، ولكن الاستعمار الداهية كان قد نظم أموره فى أوروبا على ألا يستطيع الوفد تحقيق أى نجاح فى مهمته ، وفعلا سافر الوفد إلى باريس ، ولكنه لم يجد آذانا مصغية ، أو اهتماما من أحد بالقضية المصرية ، وعاد الوفد إلى مصر ، فى نفس الوقت الذى أرسلت فيه انجلترا إلى مصر لجنة خاصة للتحقيق فى أحداث مصر وثورتها ، وهى اللجنة المسماة لجنة « ملنر » ، والتى لم تحقق الهدف من مجيئها ، فقد أرادت أن توقع بين الوفد والأمة ، وتصلح بين المصريين والإنجليز ، ولكن الحركة الوطنية القومية هى التى انتصرت ، وعادت اللجنة إلى بلادها تحمل أذيال الخيبة .

غير أن الخلاف دب في الوفد نفسه ، واهتم سعد بأن يدير شئون الوفد بمفرده ، مما زاد الخلاف ، وتدخلت السلطات البريطانية فى الخلاف وضربت الوفد وقمعت حركته ، وأبعدت سعدا وبعض رفاقه عن مصر سنة ١٩٢١ ، وقد ظل بعيدا عن مصر حتى سنة ١٩٢٣ .

فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ألقى سعد زغلول خطبة العرش عندما افتتح الملك فؤاد البرلمان ، وكان أول رئيس لوزارة شعبيه بعد الاستقلال .

بعد ذلك تولى رياسة مجلس النواب (الشعب) حتى توفى فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ ، وهو فى السابعة والستين من عمره .

بعد أن استعرضنا أهم ملامح حياة الزعيم سعد زغلول يهمنا أن نؤكد على فكر الرجل المستنير ، وشعبيته التى لايصل إليها الشك .

يقول سعد زغلول فى مذكراته :

« استفسر جورج خياط ، عندما أراد أن أضمه إلى الوفد ، عن وضع الأقباط فى مصر بعد الاستقلال ؟ فأجبته : بعد الاستقلال يكون شأنهم شأننا لا فرق بين أحد منا إلا فى الكفاءة الشخصية ».

وهذا فكر حر لزعيم شعبى يعرف أن بلاده تضم مع المسلمين مسيحيين أيضا لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات .

يقول عباس محمود العقاد فى كتابه « سعد زغلول » : « روى موظف مصرى أنه لقى المهاتما غاندى فى لندن حين زارها لحضور المؤتمر الهندى فيها فجرى الحديث بينهما عن القضية المصرية واستطرد إلى ذكر سعد فقال المهاتما : إننى تتبعت سيرة هذا الرجل القدير من سنة ١٩١٩ إلى

الآن ، ولا يزال له فى نفسى أثر عظيم ، وأنا أعده قدوة وأراه بمثابة الأستاذ .

قال الموظف المصرى : ذلك تواضع منك ولا ريب . إن الأمة المصرية أربعة عشر مليونا وأنت قد شملت حركتك ثلاثمائة وخمسين مليونا من الناس .. قال المهاتما :

« على هذا التقدير يكون سعد هو صاحب الفضل فى السبق والابتداء . ثق أن الحركة الهندية سارت على أعقاب الحركة المصرية .إنى اقتديت بسعد فى إعداد طبقة بعد طبقة من العاملين فى القضية الهندية ، وعن سعد أخذت توحيد العنصرين ولكنى لم أنجح بعد كما نجح فيه .. إن سعدا ليس لكم وحدكم ولكنه لنا أجمعين » .

هكذا كان الزعيم الشعبى سعد زغلول ، نموذجا للزعامة والوطنية للمصريين ، بل وللأجانب ، هذه الزعامة هى التى التقى حولها المصريون فعلموا أنهم أمة ، وعلموا أنهم مسلمون ومسيحيون ولكنهم أمة ، وأنهم رجال ونساء ولكنهم أمة ، وأنهم شيب وشباب ولكنهم أمة ، وأنهم حضريون وريفيون ولكنهم أمة ، فانبعثت للأمة حياة ماثلة إلى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل جنس وكل دين ، ورأينا الأيام التى نسى فيها اللص أنه سارق ولم يذكر إلا أنه مصرى من المصريين ، ونسيت الخادمة أنها خادمة ولم تذكر إلا أنها مصرية تطالب بقضية تحرير بلدها .

هذا هو الزعيم سعد زغلول الذى جمع الشعب على هدف ، وشجع الجميع على الوطنية ، حتى لو كان فيها خسارة شخصية .

لم تنته رسالة سعد زغلول بعد وفاته ، بل عاشت السيدة صفية زغلول عشرين عاما بعده تحمل الأمانة كاملة ، ففتحت أبواب بيت الأمة أمام

زعماء الوفد ، واختارت خليفة سعد ، وساندت كل المناضلين ، وانتصرت للمبادىء على القرابة ، وظلت أم المصريين فعلا حتى رحلت يوم الخميس ١٢ يناير سنة ١٩٤٦ .

هكذا استطاعت السيدة صفية ابنة رئيس مجلس وزراء مصر مصطفى فهمى باشا أن تقف بجوار زوجها الزعيم الشعبى سعد زغلول ، وتنسى الطبقة التى خرجت منها ، لتلتحم بالقاعدة الشعبية ، وتصبح بحق أماً للمصريين .

☆ ☆ ☆



■ للشارع فضل كبير علىّ ، أخذت منه الكثير ، واستفدت منه الكثير ، فالشعب هو الفنان الأصيل ، ليت لنا بعض فنه الذى يصدر عن طبيعة صادقة .

السيد درويش
الزعيم الفنان

(١٨٩٢م-١٩٢٣م)

من منا لم يسمع عن الفنان السيد درويش ؟ أولم تستمع إلى ألحانه وأغنياته ؟

لا أحد بالطبع ، فهذا الفنان على الرغم من مضى أكثر من مائة عام على مولده ، و ٧٥ عام على رحيله مازال موجودا بيننا بألحانه الشجية وأغنياته الوطنية ، ومواقفه الشخصية الشجاعة ، وثورته على الاحتلال ، وفهمه السياسى الواعى ، ونقده الاجتماعى اللاذع .

وهل ننسى النشيد الوطنى والسلام الجمهورى ، وعندما ألف موسيقاه ، لم يعرف أنه يضع النوته الموسيقية للسلام الوطنى ، بل أنه كان يلحن كلمات تقطر حبا لمصر ، معبرا بذلك عما يجيش به قلبه من عشق لبلده وتراب بلده وتاريخ بلده ، وهو نشيد « بلادى بلادى » ، وهذا النشيد بالذات اشترك السيد درويش فى تأليفه أيضاً ولم يلحنه فحسب .

استطاع هذا الفنان الكبير أن يجعلنا نتغنى ببلادنا وجمالها ، ونتوجع لأوجاعها ، ونهب للدفاع عنها وقت الشدة ، فهو عاشق ومحب كبير لمصر ، ومن فيض حبه دفعنا أيضا إلى هذا الحب الكبير ، وهل هناك انتماء أكثر من ذلك ؟ .

ولد الفنان السيد درويش فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء ١٧ مارس عام ١٨٩٢ ، ولم يكن شارع السوق بحى كوم الدكة بالأسكندرية ، والذى شهدت إحدى حاراته هذا الميلاد يعرف أن هذا الطفل المولود سيغير اسمه بعد فترة من الزمن ليصبح شارع الشيخ سيد درويش ، وفرحت الأم بمولودها الذكر ، وبخاصة أنها كانت أما لثلاث بنات ، واقترحت تسميته « عباس » تيمنا بالخديوى عباس حاكم مصر ، واقترح آخرون تسميته مصطفى تيمنا بالزعيم الشاب مصطفى كامل ،

الذى بدأ رسالته الوطنية عام ١٨٩٠ ، لكن المعلم درويش البحر الذى كره الأعداء الانجليز أراد تسمية ابنه « السيد » حتى يكون سيدا فى حياته لا مسودا .

يردد الناس اسم الفنان الكبير بسيد درويش وحسب ، ولكن الموسيقار والناقد الكبير الأستاذ عبد الحميد توفيق ذكى يؤكد فى كتابه « السيد درويش فى عيد ميلاده المئوى ، إصدار دار المعارف ، أن اسم فناننا الكبير هو السيد درويش ، وقد نشر فى الكتاب صورة طبق الأصل من شهادة الميلاد تثبت ذلك .

نشأ السيد درويش نشأة مدللة نسبيا لكونه ولد ، ولما بلغ الخامسة من عمره ، أرسله والده إلى كتاب سيدى أحمد الخياشى حتى يتعلم مبادىء القراءة والكتابة ويحفظ بعض آيات القرآن الكريم ، ولم يسمح القدر للأب أن يعيش ليربى ابنه ، فتوفى وترك طفله السيد ، وهو فى السابعة من عمره ، فاحتضنته أمه واعتنت بتعليمه وألحقته بمدرسة حسن حلاوة ثم بمدرسة شمس المدارس ؛ وفى المدرستين ظهرت موهبة الطفل السيد درويش الموسيقية ، وبخاصة مع مدرسى الموسيقى ؛ وفى حفظ الأناشيد وترديد بعض أغنيات الشيخ سلامة حجازى ، وفى المدرسة الأخيرة شجعه مدرس الموسيقى نجيب أفندى فهمى على حفظ الأناشيد وترديدها وشرح له مبادىء الموسيقى بما يتناسب مع عمره وقدرته على الاستيعاب ، وكان السيد يجتمع بعد انصرافه من المدرسة بأصدقائه الصغار ويذهبون إلى مسجد « حديفة اليمانى » ويأتون بصندوق خشبى كبير يقف عليه السيد ليغنى الأناشيد التى حفظها ، وأيضا بعض الأغنيات للشيخ سلامة حجازى ، وتواشيح وقصائد أخرى لغيره ، ومع أصدقائه كان أهل الحى الكبار والصغار يلتفون حول هذا الطفل الموهوب يستمعون إليه ، معبرين عن إعجابهم بموهبته والمستقبل الذى ينتظره .

بعد المدرسة رأت السيدة ملوك والدة السيد أن تلحق ابنها سنة ١٩٠٥ بالمعهد الدينى الجديد ، الذى أقيم فى الأسكندرية حتى يتعلم دروس الدين والفقه ، ويصبح شيخا يرتل القرآن الكريم ، واشترت له الزى الرسمى الدينى الجبة والقفطان والعمامة ، وكانت سعيدة جدا بابنها الشيخ الصغير ، أما الشيخ السيد درويش فكان حائرا بين دراسته الدينية ، وموهبته الموسيقية ، وحاول أن يجمع بينهما ، ففى الصباح هو تلميذ مجد فى المعهد الدينى ، وأثناء الظهر يقوم بالأذان ، وهو ما يتناسب مع هوايته ، أما فى المساء فيتفرغ للموسيقى والغناء ، ويحيى الحفلات الخاصة لأصدقائه والمعجبين به ، حتى وصلت شهرته كل الأسكندرية .

فى أحد الأيام ، وبينما يسير الشيخ السيد من بيته إلى المعهد الدينى ، رأى رجلا يبيع الكتب على أحد الأرصفة ، فوقف يستعرض الكتب المعروضة ، وإذ به يجد كتابا تحت عنوان « مبادىء الموسيقى الشرقية » وبسرعة اشترى الكتاب وهرول إلى بيته عائدا ليقرأ الكتاب ، حتى يعرف الكثير عن الموسيقى التى يهواها .. ومع الأيام وجد شيخنا الفتى أن ميله للموسيقى أكثر من ميله للدراسات الدينية ، ومع أنه نجح بتفوق فى السنة الأولى وانتقل إلى السنة الثانية ، إلا أنه ترك المعهد الدينى ليتفرغ للفن .

تزوج السيد درويش وهو صغير السن ، فى السادسة عشرة من عمره ، ولم يتزوج مرة واحدة ، بل تزوج بعد ذلك ثلاث مرات ، ومن هذه الزيجات زيجة لم تتم ، فقد جاء يوم الفرح ورأى عروسه عجوزة قبيحة المنظر فهرب من الفرح وقال : إن الشيطان نفسه لو رآها لهرب .. أضاف الزواج عبئا جديدا على فناننا الصغير الشيخ السيد درويش ، فأصبح يعول زوجته وأمه وشقيقته ، وكان لابد أن يعمل حتى يجد لقمة العيش ،

ولا مجال للعمل إلا فى الغناء الذى احترفه واشتهر به ، فاضطر إلى أن يغنى فى أماكن مختلفة منها الصالح ومنها غير الصالح ، ومع ضيقه بالأماكن المشبوهة المزدحمة بالمخمورين والمساطيل إلا أنه كان لابد أن يعمل حتى يعيش ، ثم أخذ يبحث عن عمل آخر يرتزق منه غير الفن ، ووجد الفرصة فى أن يعمل مع العمال فى البياض ، وأثناء عمله أخذ يغنى ويشجع زملاءه على العمل بهمة ونشاط ، وفعلا ازداد العمال نشاطا وحركة ، ولاحظ المسئول عنهم ذلك ، وعرف أن السبب هو غناء العامل الجديد السيد درويش فطلب منه ألا يعمل ويغنى فقط للعمال وينشطهم ، فأخذ يفعل ذلك وتفرغ للفن مرة أخرى فى عمل أبعد مايكون عن الفن .. وكان بجوار موقع العمل مقهى يستريح فيها العمال بعض الوقت ، وشاء قدر السيد درويش أن يقابل فى هذا المقهى الأخوان سليم وأمين عطا الله ، وعندما تعرفوا على موهبته عرضا عليه السفر إلى الشام مع فرقتهما ، ووافق السيد درويش فى الحال ، لأنه كان بحاجة إلى عمل جديد ، وسافر سنة ١٩٠٩ فى أول رحلة فنية له ، وعمره سبعة عشر عاما ، ومرة أخرى يشعر بالفشل ، فلم تكون الرحلة موفقة وعاد إلى الأسكندرية وهو خالى الوفاض إلا من حفظ بعض أغنيات الفنان السورى عثمان الموصلى .

فى الأسكندرية بدأ السيد درويش البحث عن عمل جديد ، واضطر مرة أخرى للغناء فى المقاهى والحانات الرخيصة ، على الرغم من كراهيته لها ، ولكن المثل يقول .. أكل العيش مُر .. وبخاصة أنه كان قد رزق ابنا أسماه محمد البحر ، وزادت مسئوليته العائلية ، وحاول العمل بعد ذلك فى مهنة أخرى غير الفن حتى لا يقدم فنه إلى الذين لا يقدرونه ، فعمل كاتبا بإحدى المحلات التجارية ، لكنه لم يستمر فيه أكثر من أربعة أشهر ، عاد بعدها للغناء فى باركوستى ، ومرة ثانية يعرض عليه الفنان سليم عطا

الله السفر إلى سوريا ، وفعلا سافر سنة ١٩١٢ إلى الشام وكانت هذه الرحلة موفقه أكثر من سابقتها ، فقضى عاما هناك قدم خلاله فنه إلى الأشقاء فى سورية ، ووطد علاقته بالفنانين هناك ، وبخاصة عثمان الموصلى ، وحفظ الأغنيات والموشحات الكثيرة ، واطلع على أمهات الكتب وأحدثها فى مجال الفن والموسيقى ، وقد أحضر معه فى عودته بعض هذه الكتب ومنها كتاب « تحفة الموعود فى تعليم العود » .

بدأ نجم السيد درويش يلمع فى سماء مدينة الأسكندرية ، وتفرغ تماماً للفن ، وأخذت الأماكن الفنية من مقاهى ومسارح تتخاطفه ، وقضى السنوات من ١٩١٣ إلى ١٩١٧ يلحن ويغنى ويبدع ألحانا تعجب الجميع ، من هذه الأغنيات « زورونى كل سنة مرة » و « فى شرع مين » و « أنا هويت » « وغير ذلك » .

شاءت المصادفة أن يتعرف الفنان جورج أبيض على السيد درويش فى الأسكندرية ، فقد كانت فرقة الأول تعرض هناك ، وعرض جورج على السيد الحضور إلى القاهرة ، وتلحين بعض الأوبريتات الاستعراضية لفرقته ، ووافق السيد درويش وحضر إلى القاهرة ، ولحن للفرقة أوبريت « فيروز شاة » ونجح الأوبريت نجاحا رائعا جعل الناس تردد مقاطع أو مسامع منه فى الشارع ، وسمع الفنان نجيب الريحانى عن السيد درويش وألحانه الرائعة التى يرددها الجميع فاشتاق إلى رؤيته وتمنى أن يضمه إلى فرقته ، ويذكر نجيب الريحانى هذا فى مذكراته فيقول :

« .. كانت الألحان المتناثرة التى تصل إلى أذنى ممن شاهدوا « فيروز شاه » سببا فى توجيه فكرى إلى السيد درويش .. ففى يوم استدعيت أحد أفراد الفرقة وطلبت إليه أن يسمعنى بعض ألحان فيروز شاه فأسمعنى لحنا أذهلنى وتأكدت أن شهرة ملحنه السيد درويش سوف تطغى على غيره من الملحنين بسرعة .. ومن هنا صممت على أن تحصل فرقتنا على السيد

درويش .. وأسررت بالأمر فى أذنى صديقى الأستاذ بديع خيرى وطلبت إليه أن يحاول الاتفاق معه للعمل مع فرقتنا ، ورأى بديع خيرى أن يستصحب المرحوم حسين شفيق المصرى ليستوضحه رأية فى الموضوع .. وتقابل الأستاذان بديع وحسين مع السيد لأول مرة وعرضا عليه الأمر ، وقبل العرض ، وتم التفاهم بينى وبين السيد درويش على أن يلحن رواياتنا مقابل ستين جنيها شهريا ..»

لحن السيد درويش لفرقة نجيب الريحانى مجموعة أوبريتات منها ، العشرة الطيبة ، ولو ، إش ، فشر ، قولو له ، رن، كله من ده .

شهدت القاهرة مع قدوم الفنان السيد درويش إليها سنة ١٩١٧ ولمدة ست سنوات هى عمره الفني ، قبل أن يخطتفه الموت انطلاقه فنيه عبقرية ، فقد سخر موهبته فى تقديم كل جديد ، وأخذ يتعامل مع الشعب بكل طبقاته وطوائفه ، ويعبر عن آلامه وأحلامه وقيمه بالأغنيات المناسبة التى مازلنا نرددها حتى اليوم ، كذلك لحن لكل الفرق المسرحية الموجودة فى ذلك الوقت .. فقد لحن لفرقة على الكسار أوبريتات ، راحت عليك ، ولسه ، مرحب ، أم أربعة وأربعين ، البربرى فى الجيش ، الهلال ، أحلامهم ، قلنا له ، اللىفيهم ، الانتخابات .

كما لحن لفرقة منيرة المهدية .. كلها يومين .. الفصل الأول وجزءاً من الفصل الثانى من أوبرا « كليوباترا وأنطونيو » التى أتممها الموسيقار محمد عبد الوهاب بعد ذلك . ولحن لفرقة أولاد عكاشة أوبريتات .. الدرة اليتيمة .. هدى ، عبد الرحمن الناصر .

فى أيامه الأخيرة أنشأ السيد درويش فرقة خاصة به حتى يتخلص من متاعب أصحاب الفرق الأخرى ، ويتفرغ لفنه فقط ، ولحن لفرقته أوبريتات ، شهر زاد ، البروكة ، كما أعاد عرض « العشرة الطيبة » التى لحنها لفرقة نجيب الريحانى قبل ذلك .

نستطيع أن نجمل أعمال السيد درويش فيما يلى :

الألحان المسرحية .. ٣٠٠ عملا

الموشــــــحات .. ٣٨ عملا

أغنيات تقليدية .. ٢٠ عملا

أدوار .. ١٠ أعمال

طقاطيق .. ٦٦ عملا

مسرحيات غنائية .. ٢٦ عملا

وطنيات .. ٥٠ عملا

العجيب أن أعمال السيد درويش على الرغم من كثرتها ، إلا أنها كانت جديدة فى كل مرة ، ولم تتشابه ، مما يدل على موهبة فذة ، وعبقرية فريدة ، وكان يهتم بأن ينقل نبض الشارع ، ورجل الشارع فى ألحانه ، حدث عندما اتفق الفنان السيد درويش مع نجيب الريحانى وبديع خيرى على العمل معهما ، كانت أوبريت « ولو » هى العمل الأول ، وكان أول لحن استلمه السيد لتلحينه هو لحن السقايين ، واستلم الفنان مع كلمات اللحن مبلغ عشرة جنيهات عربونا .. ويشرح لنا السيد درويش ظروف تلحين هذا اللحن فيقول : « بقيت الكلمات فى جيبى أكثر من أسبوع وأنا لا أعرف كيف أبتدىء ولا من أين أبتدىء ؟ .. حاولت أكثر من مرة وفشلت .. وفكرت فى أن أرد اللحن لنجيب . وأعتذر وأفسخ العقد الذى كان بيننا وأعود إلى الأسكندرية .. ولكن كيف أرد العشرة

الجنيهات ؟ .. وقد أنفقتها لآخر مليم .. وحرت ماذا أفعل ؟ .. وفى صباح اليوم العاشر - على وجه التحديد - كنت أسير فى حى عابدين على غير هدى ، وإذا بى أسمع نداء لطيفا (يهوّن الله .. يعّوض الله) فتلفت .. ورأيت سقاء وقربته على ظهره ، يردد النداء ويمضى على مهل .. وتابعته عن كثب قرابة ساعة ، ثم عدت إلى المنزل ، وسرقت مطلع اللحن من النداء الذى سمعته ، وفى الجلسة نفسها أتممت اللحن كله .. ومن يومها عرفت فضل الشارع ، أخذت منه الكثير ، واستفدت منه الكثير ، فالشعب هو الفنان الأصيل ، ليت لنا بعض فنه الذى يصدر عن طبيعة صادقة أصيلة ، لا يمكن للصنعة - مهما بلغت من القدرة والإعجاز - أن تبلغ شأوها !! يؤكد المستشرق إدوار لويس كلمات السيد درويش فيقول : « .. كان السيد يسمع فى المساء صوت حمّال فى جزيرة بدران ، حيث كان يسكن ، فيستفزه الحماس ويغادر المنزل ويتبع هذا اللحن الخام الرائع من شارع إلى آخر .. وفى بولاق يسمع صوت بائع متجول فينصت إليه يغنى بلهجة مصر العليا « عجائب تمره » وفى المساء ذاته يروى تجربته إلى بديع خيرى ، فتولد الأغنية الشعبية :

مليحه جوى الجلل الجناوى   رخيصة جوى الجلل الجناوى

أما الأديب الكبير يحى حقى فيقول عن هذه الظاهرة :

« .. عندما تسمع إلى لحن السيد درويش .. شد الحزام على وسطك .. يخيل إليك أنه اشتغل طول عمره شيالا فى محطة مصر ، أو سقّاءا من لحنه .. يعوض الله ، أو سايسا يجرى أمام عربات الباشوات ، من لحنه .. إوع يمينك إوع شمالك .. أو أنه مولود فى السودان من لحنه « شنجر دام » ومعناه : مفيش فلوس .. أو محاميا من لحن .. يابو

الكشاكش إحنا الأبوكاتية .. أو تاجر سجاجيد كشانى من لحنه .. احنا ياأفندم تجار العجم ، أو جرسونا يونانيا فى قهوة من لحنه .. ياما شاء الله ع التحفجية .. ويستكمل يحى حقى حديثه فيقول : « وأزعم أن تلحين هذه الأغنيات الجماعية هو السبب الذى فتح الطريق أمام السيد درويش للقيام بدوره الخطير فى الموسيقى العربية بتحويلها من التطريب الصرف إلى التعبير ..»

يقول الكاتب العملاق عباس محمود العقاد :

« .. مهد السيد درويش بنشاطه الفنى للتطور الاجتماعى فى أحوال الطوائف الصناعية خاصة حيث لا تختلط هذه الأدوار بالأدوار الفردية .. فإن أناشيده على ألسنه الحوذية وباعة الدجاج وباعة اليانصيب » وتجار الفحم ، وعمال السلطة والمراكبية كانت تمهيدا فنيا لاشك فيه لشيوع النقابات وانتباه كل طائفة من الطوائف إلى وحدتها الاجتماعية .

الحديث عن فن الفنان الكبير السيد درويش ، حديث طويل مهم ، فهو الذى جعل الشعب يتغنى بعمله وبقيمه وبلده ، وحول الفن الموسيقى من التطريب والتسلية وحسب إلى التعبير والفخر والوطنية الصادقة ، فأثناء قيام ثورة سنة ١٩١٩ شعر السيد درويش أن الفن لا يقوم بدوره القيادى وواجبه الحقيقى فى خدمة الشعب والوطن ، وبدأ يفكر فى وضع ألحان وأناشيد وطنية حماسية تتفق والظروف التى تمر بها مصر ، وسمع أحد أصدقائه بنيته هذه وتحوله إلى الألحان الوطنية فقال له : وما شأنك أنت ؟ وما شأن الغناء بالوطنية والسياسة ؟ وصمت الفنان الكبير برهة ثم قال لصديقه :

« .. إن للغناء شأناً كبيراً بما تعانيه البلاد ، وما المغنى إلا صوت الشعب لو أنه فهم رسالته الحقيقية .. ولقد كنا عن واجبنا غافلين ، وكنا عن أولى مهمات رسالتنا معرضين .. ولكنى لن أقع فى هذا الخطأ بعد الآن ، وسترى أغانى وألحانى منذ اليوم من لون آخر غير الذى تعودت أن ترى ، سأعبر عن شعور الشعب وأحاسيسه ، فما هذا الفن القدسى العلوى بالذى يعبر عن نزوات الأفراد ومغامراتهم ، وما خلق للترفيه عن المنحلين وسمار الليالى .. بل أنه المعبر عن الجماهير والملايين ..»

استطاع السيد درويش أن يستغل عبقريته الموسيقية فى تلحين أغنيات وأناشيد وطنية تعبر عن حب الوطن وافتدائه ، وانتمائه الحقيقى لمصر ، وجعل من الموسيقى والأناشيد سلاحا يحارب به العدو ، بل سلاحا أشد وأقوى من القنابل والمدافع .. فهذا هدير الشعب ينشد .. بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .. وأنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد بين الأهرمين .. وقوم يامصرى مصر دايما بتناديك ، احنا الجنود زى الأسود ، أحسن جيوش فى الأمم جيوشنا ، وغير ذلك كثير .

الفنان السيد درويش كان زعيما ثائرا استخدم الموسيقى وسيلة لزعامته وثورته ، وبجانب أناشيده الوطنية التى تقطر حبا وعشقا لمصر ، وكراهيته للمستعمر الإنجليزى ، خرج إلى الشارع يقود المظاهرات بنفسه ، وعندما منعه الزحام من قيادة المظاهرات استأجر عربة حنطور حتى يتمكن من الاشراف على المظاهرات وإلقاء الأناشيد . اشترك السيد درويش فى تأليف نشيد بلادى بلادى ، مع تلحينه أيضا ، فقد أخذ من خطبة الزعيم مصطفى كامل مطلع النشيد ، وكانت الخطبة تقول :

« بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى .. بلادى بلادى .. لك لبى وجنانى .. لك روحى ونفسى .. أنت أنت الحياة .. ولا حياة إلا بك يا مصر ..»

اختار السيد درويش مطلع خطبة مصطفى كامل ، وجلس مع الأديب مجد الدين حفنى ناصف . والشاعر محمد يونس القاضى ، وصاغ ثلاثتهم النشيد بعد مساجلات ومناقشات كثيرة بسبب أن شطرة بلادى بلادى من بحر غير شطرة لك حبى فؤادى ، وعالج السيد درويش لحن البيت الأول بتكرار كلمة بلادى ثلاث مرات ، وأصبحت الجملة الموسيقية بذلك سليمة وخاضعة للقواعد الفنية .. تقول كلمات النشيد :

بلادى بلادى بلادى — لك حبى وفـؤادى

مصر ياأم البـــــلاد — أنت غـايتى والمراد

وعلى كل العبـــــاد — كم لنيلك من أيادى

* * *

مصر ياأرض النعيم — سدت بالمجد القديم

مقصدى دفع الغريم — على الله اعتمـــادى

* * *

مصر أولادك كرام — أوفياء يرعوا الزمام

سوف نحظى بالمرام　　　باتحادهم واتحادى

* * *

مصر أنت أغلى درة　　　فوق جبين الدهر غرة

يابلادى عيشى حره　　　واسعدى رغم الأعادى

وبعد معاهدة كامب ديفيد ، بين مصر وأسرائيل سنة ١٩٧٩ أضاف الأديب الكبير ثروة أباظة نهاية للنشيد تقول :

نحن حرب وسلام　　　وفـــداك يابـــلادى

كان الرئيس أنور السادات قد أمر بتحويل النشيد إلى نشيد قومى ، وسلام لجمهورية مصر العربية ، وكلف الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب بالإشراف على هذا العمل ، وأمر أن يعزف بصورته الجديدة عند عودته إلى أرض الوطن بعد اتفاقية كامب ديفيد ، ومن يومها يعتبر هذا اللحن للفنان الخالد السيد درويش ، هو السلام الجمهورى لمصر رسميا .

استطاع حس الفنان الكبير السيد درويش أن يتعرف على مشاكل بلاده ، وطرق الاستعمار المتباينة للسيطرة والهيمنة ، وهو يعالج فى فنه كل هذه الأمور ببساطة وإيمان بقيمة الفن كسلاح وطنى ، وفى أغنية السياسى نلحظ اهتمامه بالوحدة الوطنية وضرورة وجودها حتى لاتتاح للعدو فرصة

اللعب عليها واستغلالها لمصلحته ، تقول الأغنية :

اوعى يمينك اوعى شـــمالك اوعى الأزمة توقف حالك
اوعى وشـك أوعى ضهـرك اوعى فوقك اوعى تحتك
اوعى لجيبــك م الحراميـة اوعى لروحك م الحنوتية
اوعى الكوكاين يلحس مخك اوعى م البوكر لا يسطلك
اوعى الروماتيزم فى رجـلك اوعى الجـوزة تطير عقلك

يمينك .. شمالك اوعى

وردة وردة يا أفندى حودة حودة يااللاوسـع بلا زحمـــة
اســمع اسـمع منى كلمـــة ان كنت صحيح بدك تخـدم

يا شـــيخ اتعـــلم

اللى أوطانهـــم تجمعهـم عمـر الأديـان ما تفرقهـم

يمينك .. شمالك اوعى

هكذا كان الفنان الكبير السيد درويش فنانا أصيلا محبا لبلده ، سخر الفن كسلاح للدفاع عن حرية مصر ، وتغنى بها وبشعبها الأصيل وبأمجادها التاريخية ، وجعلنا نتغنى ببلادنا وحريتنا وتاريخنا وحاضرنا ، ومازلنا نردد ألحانه الشجية السهلة المتحمسة .

ذهب السيد درويش إلى الأسكندرية لاستقبال زعيم الشعب سعد زغلول عند عودته ، ولكنه فجأة توفى فجر يوم الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، وهو فى شرخ الشباب ، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل فقد مات فى يوم العيد .

ولتكريم فنان الشعب السيد درويش تكونت جمعية أصدقاء موسيقى السيد درويش ، وهى تعنى بالتراث وتقيم الأمسيات الفنية والمحاضرات عن فناننا الكبير ولا شك أن نشر وإذاعة أعمال السيد درويش هو أكبر تكريم له .

* * *





■ لا كرامة ولا حرية لشعب لا دستور له ، ومهما قيل فى عيوب الحكومات النيابية ، فهى خير وأصلح من أى نوع من الحكومات الأخرى .

مصر للمصريين

أحمد لطفى السيد

(١٨٧٢م - ١٩٦٣م)

فى بداية القرن العشرين ، كانت مصر تعانى من الاحتلال العثمانى ، والاحتلال الانجليزى ، كما كانت فرنسا تغازلها إعجابا بها رغم ما فعله المصريون بالفرنسيين . واختلف الساسة المصريون والمفكرون فى الطريقة المثلى لتحقيق الاستقلال ، رأى الزعيم الثائر مصطفى كامل ضرورة طرد الإنجليز من مصر ، حتى بالاستعانة بالعثمانيين أو الفرنسيين .

ورأى أحمد لطفى السيد أن الاستقلال يجب أن يتحقق عن طريق المصريين أنفسهم ، من هنا اهتم بالعقل المصرى ، وأطلق شعاره المعروف .. « مصر للمصريين » ..

ولد أحمد لطفى السيد فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ بقرية « برقين » مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية ، وكان والده عمدة القرية فنشأ ميسور الحال ، بل ومن الطبقة الأرستقراطية ، يقول أحمد لطفى السيد عن والده :

(..كان يجيد حفظ القرآن الكريم كله . وعرف بشخصيته المهيبة وقوة شكيمته ، وعدالته فى معاملته ، وعطفه على أهل قريته وغيرهم . وأذكر أنه ما قسا يوما علىّ ، ولا وجه إلىّ كلمة نابية أو عبارة تؤلم نفسى ، بل كان عطوفا حكيما فى تربية أبنائه ، يعنى بالقدوة الحسنة ، وحسن التوجيه والإرشاد ..) ..

من هذه الكلمات نستطيع التعرف على كيفية تربية هذا المفكر الكبير مما ساعده على أن يكون شخصية قوية هادئة مؤثرة .

عندما بلغ الطفل أحمد الرابعة من عمره ، ألحقه والده بكتاب الشيخة فاطمة ، فمكث فيه ست سنوات تعلم خلالها القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم كله ، وعبر والده عن سعادته به واستعداده الطيب للعلم

فاشترى له هدية من الشام عبارة عن مهرة ، ليركبها للتنزه وقضاء بعض الأعمال .. بعد الكتاب ألحقه والده سنة ١٨٨٢ بالمدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها ، وهى مدرسة المنصورة الابتدائية ، والتحق بالسنة الثانية بامتحان ، لأنه كان يعرف قواعد الحساب ، ، والأهم من ذلك أنه كان يحفظ القرآن الكريم .. ولم يسترح طفلنا أحمد للعيش فى القسم الداخلى بالمدرسة ، إذ كان نظامها عسكرياً قاسياً ، وكان الضرب والحبس عقاب التلميذ المخطىء ، هذا بالاضافة إلى الطعام السيىء الذى يعتمد فى الغالب على العدس والفول ، فى الغداء والعشاء ، ونادرا ما تتضمن بعض الوجبات شيئا من اللحم والفاكهة ، أما وجبة الإفطار فهى رغيف من الخبز فقط وعلى التلميذ أن يشترى باقى الطعام ..!

أمضى التلميذ أحمد ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية متحملا شظف العيش وقسوة النظام ، وفى سنة ١٨٨٥ انتهى من تعليمه الابتدائى وانتقل إلى التعليم الثانوى فى المدرسة الخديوية بالقاهرة ، واختلف الحال فى هذه المدرسة عن سابقتها ، ففيها كان الترف واضحا ، فكان يتناول يوميا البيض واللحم والحلو والفاكهة ، وزادت سعادته عندما تعرف على زميله عبدالعزيز فهمى ، إذ وجد فيه تشابها فكريا فأصبحا صديقين طوال العمر .. على أن القاهرة فى تلك الأيام كان يتحكم فيها الفتوات والعصابات ، وكان أحمد لطفى السيد يسمع عن المعارك الدامية بين هذه العصابات فدفعه الخوف إلى طلب السلامة والأمن ، فكان لا يترك المدرسة أثناء العطلة الأسبوعية ، وكما يقولون : رب ضارة نافعة ، فقد استفاد بهذا الوقت وهذه العطلة فقرأ كتاب « أصل الأنواع »لداروين ، وحفظ كثيرا من المعلقات وأشعار كبار الشعراء .

خلال المرحلة الثانوية كان أحمد متوسط الحال ، فلم يكن من المتقدمين ولا من المتأخرين ، ومع ذلك كان متفوقا فى مادتى العربى

والرياضة ، وعندما وصل إلى البكالوريا طلب زملاؤه منه مقابلة وزير المعارف وقتذاك وهو على باشا مبارك ليعفيهم من الاختبارات الشهرية التى كانت تقيمها المدرسة حتى يتفرغوا للمذاكرة للامتحان العام ، فذهب بكل شجاعة إلى الوزير ، وتقدم بطلبه إليه ، وكان الوزير قد استن عادة طريفة هى أن يمتحن أى طالب يطلب منه شيئا ، فإذا أجاب إجابة سليمة حقق له طلبه ، وسأل الوزير أحمد لطفى السيد أن يبرهن النظرية الهندسية التى حاصلها « أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين » وأثبت التلميذ النظرية ، فأجابه الوزير لطلبه ، ونجح فى مهمته نيابة عن الطلبة ، وكان هذا امتحانا لشخصيته وحب الزملاء له ، وقدرته على التحدث إلى الوزير وهو مازال تلميذا .

فى سنة ١٨٨٩ حصل تلميذنا النجيب على شهادة البكالوريا - شهادة الثانوية العامة الآن - والتحق بمدرسة الحقوق ، يقول أحمد لطفى السيد فى كتاب (قصة حياتى) عن هذه المدرسة :

« كانت المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية الحقوق » و« كلية الآداب » معا .. فقد كان الطلبة يدرسون فيها إلى جانب العلوم القانونية علوما أدبية كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى ، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة ، والمنطق . وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات ..» .

تعرف أحمد لطفى السيد فى مدرسة الحقوق على الشيخ محمد عبده الذى كان مدرسا بها ، وفى السنة الثالثة ، دارت الأسئلة فى امتحان آخر العام عن حق الحكومة فى معاقبة الجانى ، وكانت هذه المادة هى التى يدُرسها الشيخ محمد عبده ، وتناول طالبنا الموضوع من جميع نواحيه ، فكتب المذاهب الأربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون

العقوبات ، ثم نقد كل مذهب على حدة ، وخلص فى النهاية إلى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى ، لأن كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق وإنما الذى يعطيه هو العقد فقط ، وليس هناك أى عقد بين أية حكومة وبين أمتها !

كالعادة بعد انتهاء الامتحان يتقابل الطلبة ويناقشون مع بعض الإجابات الصحيحة ، خرج أحمد من الامتحان سعيدا بإجابته ، لكن سرعان ماشك فى ذلك بعد أن شرح لزميله « محمود عبدالغفار » ما كتبه ، إذ أن هذا الزميل وبخه وقال له :

« يا لطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينى فين » حزن لطفى وتأكد أنه سيرسب فى هذه المادة وسيأخذ فيها صفرا .. وكان الجزء الثانى من هذه المادة يمتحن فيه شفويا ، وعندما جلس الطالب أمام اللجنة قال له الشيخ محمد عبده :

« إنى أهنئك بما كتبت وقد أعطيناك أعلى درجة ، لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الإنشاء !» وكانت هذه الكلمات المشجعة سببا فى زيادة الثقة بالنفس ، وبداية لصداقة حميمة بين الأستاذ الشيخ وتلميذه .

لم يكن أحمد لطفى السيد مجرد طالبا فى مدرسة الحقوق يدرس لكى يحصل على شهادة منها ، وإنما كان هاويا للدراسة متشوقا للعلم والبحث ، قارئا مهما للكتب فى شتى أنواع المعرفة ، كما هوى الكتابة للصحف وهو مازال طالبا ، فكتب فى جريدة « المؤيد » وغيرها .. وفى سنة ١٨٩٣ سافر إلى اسطنبول ، وهو مازال طالبا بالحقوق ، وهناك تقابل مع المصلح الدينى والعالم الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، وأعجبه فيه سعة الاطلاع ، وقوة الحجة والإقناع واحترامه لجميع الطلبة والأساتذة ،

وشعر برغبة ملحة فى التتلمذ على يديه ، وأفصح له بذلك ، ورحب الأستاذ بتلميذه الجـديد ، وطلب منه أن يلازمه طول إقامته فى الأستانة ، « اسطنبول » .. ويقول أحمد لطفى السيد فى ذلك :

« .. أهم ما أظن أنى انتفعت به من السيد جمال الدين الأفغانى فى تلك المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى إلى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه إلا إذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر ..» وكان جمال الدين ميالا للسياسة يتحدث عنها كثيرا ، وكأنه يريد أن يقيم فى الشرق دولة تصارع انجلترا فى الغرب ..

وكان يعيب على المصريين تخاذلهم وتفرقهم ونزاعهم وسط ما يلم بهم من الحوادث الجسام ويردد قوله :

« اتفق المصريون على ألا يتفقوا » .

فى سنة ١٨٩٤ حصل لطفى السيد على درجة ليسانس الحقوق ، وعين هو وكل دفعته كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات كل شهر ، وفى سنة ١٨٩٦ عين وكيلا للنيابة ببنى سويف ، بمرتب عشرة جنيهات ، وكان سعيدا بهذا العمل لقربة من صديقه عبدالعزيز فهمى ، ودفعته وطنيته إلى إنشاء جمعية سرية هدفها تحرير مصر ، من زملائه رجال القضاء وغيرهم ، وبعد تأليفه لهذه الجمعية ، تقابل فى القاهرة بالمصادفة مع الزعيم الثائر الشاب مصطفى كامل ، الذى عرض عليه الاشتراك فى تأسيس الحزب الوطنى لمقاومة الاحتلال ، وشرح الزعيم الشاب لأحمد لطفى السيد أن اشتراكه فى الحزب الوطنى لا يؤثر على الجمعية السرية الأخرى التى أسسها لتحرير مصر ، وطلب الخديوى عباس مقابلة أحمد لطفى السيد لمناقشته فى عمل الحزب الوطنى ، وذهب إليه ، فتحدث معه عن

أهداف الحزب ، كما طلب منه أن يسافر إلى سويسرا ويمكث عاما هناك لكى يكتسب الجنسية السويسرية ، ثم يعود إلى مصر ليحرر صحيفة تقاوم الاحتلال البريطانى ، ولا يستطيع أحد القبض عليه لجنسيته الأجنبية ، وخرج لطفى السيد من مقابلة الخديوى إلى بيت محمد فريد واجتمع مع مصطفى كامل وسعيد الشيمى ولبيب محرم ، وألفوا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديوى ، ثم سافر بعد ذلك إلى سويسرا تلبية لطلب وتكليف الخديوى عباس ، وهناك التحق بالدراسة فى الجامعة ، وتخصص فى الآداب والفلسفة ، كما هوى لعبة « الشيش » وتدرب عليها ، والأهم من ذلك أنه التقى بالشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وكان قاسم وقتئذ يؤلف كتابه الشهير « تحرير المرأة » فانتهز الفرصة وقرأ على رفاقه بعض فصول الكتاب ، ووجد التشجيع من الجميع ، أى أن لطفى السيد ورفاقه كانوا يؤيدون قاسم فى دعوته الجريئة إبان تلك الفترة التاريخية المبكرة لتحرير المرأة وتعليمها ومنحها حقوقها الإنسانية الكاملة .. ثم ترك سعد زغلول وقاسم أمين سويسرا وبقى الشيخ محمد عبده مع لطفى السيد ، ومن هنا نشأت صداقة قوية بين الاثنين ، حقيقة أن لطفى السيد كان تلميذا للشيخ فى مدرسة الحقوق ، لكن صداقة الغربة خارج الوطن لها طعم خاص ، وبخاصة إذا كانت بين اثنين متوافقين فى العلم والمزاج والطموح .

وقد استفاد لطفى السيد من أستاذين جليلين جمال الدين الأفغانى فى تركيا ، والشيخ محمد عبده فى سويسرا ، عرف عن طريقهما معنى الحرية والاستقلال والقومية والوطنية ، وأهمية الثقافة والحضارة ، وضرورة العلم والتعلم .

عرف الخديوى عباس مدى الصداقة التى توثقت فى سويسرا بين الشيخ ولطفى السيد ، وكان لا يميل إلى الشيخ محمد عبده بسبب أفكاره

التقدمية ، وكراهيته لأسرة محمد على ، وبعث يستدعى لطفى السيد قبل أن تنتهى مهمته فى سويسرا ، وعاد فعلا ، وفى الأسكندرية أرسل لطفى السيد تقريرا إلى الخديوى أفصح فيه عن ما استفاده فى دراسته ومقابلاته فى جنيف ، وقال فيه :

« ..إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها ، وأن المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمو الخديوى حركة شاملة للتعليم العام ..» .

كانت هذه الخطوة الأولى فى كفاح لطفى السيد ، والمطلب المهم للنهوض بمصر ، نشر التعليم العام وإتاحة الفرصة للجميع ، للفلاحين والعمال وكل عناصر الشعب فى التعليم .

بعد عودته من أوربا عمل لطفى السيد وكيلا للنيابة فى الفيوم ، ثم فى ميت غمر سنة ١٩٠٠ ، ثم عاد بعدها إلى الفيوم مرة أخرى ، ثم إلى المنيا ، وفى سنة ١٩٠٥ قدم استقالته من النيابة لخلاف فى الرأى القانونى بينه وبين النائب العمومى ، وأصر على الاستقالة ، وشجعه صديقه عبدالعزيز فهمى على العمل مثله بالمحاماة - وكان قد استقال هو الآخر من عمله - فعمل بالمحاماة مدة سنتين تقريبا ، ويذكر عبدالعزيز فهمى باشا فى مذكراته حادثة توضح لنا القيم الخلقية التى كان يتمتع بها لطفى.السيد ، فيقول :

« .. عندما اشتركت مع صديقى لطفى السيد فى العمل بالمحاماة سنة ١٩٠٦ ، جاءه والده ذات يوم وكان يحبه حبا جما ، وأخبره أنه شارع فى شراء عزبة مساحتها أربعمائة وخمسون فدانا ، وأنه يريد كتابتها باسم « لطفى » فعند ذلك غضب لطفى وقال لأبيه :

كلا .. لا أقبل مطلقا أن تميزنى على أخوى سالم وسعيد ، فإن أردت

أن يكون العقد لى ولهما ، فذاك .. وإلا فلا ، فأكبر والده ذلك الشعور ، وأكبرت ذلك الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة ، ولم يسع والده إلا إجابة طلبه » ..

عمل لطفى السيد بالمحاماة ، ولكنه لم يستمر فيها طويلا ، والطريف انه اضطر أن يدافع عن قضية يعرف منذالبداية أنها خاسرة ، ولكن صاحبها أخذ يستعطفه فربما يكسبها ، وكانت النتيجة كما توقع لطفى السيد ، فشلت القضية ، وشعر بفقر وبساطة صاحبها فمنحه العشرين جنيها التى كان قد أخذها فى البداية كاتعاب محاماة ، وبعدها هجر العمل فى المحاماة ، وتفرغ للسياسة والصحافة والتعليم .

فى سنة ١٩٠٤ عقد اتفاق ودى بين فرنسا وانجلترا ، ونص الاتفاق على أن تعترف الحكومة الانجليزية أنها لا ترغب فى تغيير نظام مصر السياسى ، وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء أو بأية طريقة أخرى .

فقد الوطنيون المصريون الأمل بعد ذلك فى الاعتماد على فرنسا لتحقيق الاستقلال من انجلترا ، ووجد الجميع أنه لا فائدة فى الاعتماد على الغير ، بل الطريق الوحيد هو الاعتماد على النفس ، وهنا أطلق أحمد لطفى السيد شعاره المعروف مصر للمصريين ، وأنه لن يحرر مصر إلا أبناء مصر بكل عناصرهم وطوائفهم ، وكان يؤمن بأن الدين الاسلامى يأمر بالتعاون والتعاضد والائتلاف بين أفراد الأمة ، كما يأمر بالعدل والإحسان ، ويوصى خيرا بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة فى الفقة .

وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائن الذى يعبر عنه الافرنج

« بالفاناتيزم » . يقول لطفى السيد فى كتابه « قصة حياتى » عن التعصب الدينى :

« .. التعصب الدينى شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده إلا بآثاره ، ومن المشاهد أن الأقباط فى مصر يعيشون مع المسلمين مختلطين فى المصانع والمساكن متكاتفين فى المزارع والأعمال ، متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين فى الوظائف والمرافق ، ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجهم على إخوانهم ، أو أظهروا يوما بما يقتضيه وجود التعصب الدينى فى النفوس من حقد .

هكذا بدأ لطفى السيد كفاحه بالدعوة إلى تعليم الأمة ، ثم بالدعوة إلى الوحدة الوطنية ، وأن مصر للمصريين جميعا ، وأن كل الآمال فى الاستقلال والتقدم والديمقراطية لن تتحقق إلا بالوحدة وبأيدى المصريين أنفسهم .

فكر لطفى السيد ورفاقه فى إنشاء جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا ، أو إحدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد ، ويكون هدفها تكوين رأى عام مستنير ضد الاحتلال ، وضرورة الاستقلال ، والاعتماد على النفس ، وتعليم أبناء الأمة على اختلاف مواقعهم ، وتحقيق الديمقراطية تدريجيا ، وتكونت شركة الجريدة فى بيت محمود باشا سليمان ، وانتخب لطفى السيد مديرا لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات ، أما رئيسها فكان محمود باشا سليمان ، ووكيلها حسن باشا عبد الرازق الكبير . وظهرت الجريدة فى التاسع من شهر مارس سنة ١٩٠٧ .

لم تكن صحيفة الجريدة مجرد صحيفة ناقدة تنشر التحقيقات وتهاجم الاستعمار ، وتقف ضد الإجراءات والقرارات التى لا تتفق ومصلحة مصر ، بل كانت بجانب ذلك تقوم برسالة ثقافية بين الشباب المتعلم ، إذ كان يحضر الكثير منهم للاستماع إلى محاضرات عدد من كبار الأساتذة والمحامين المصريين التى تعقد فى دار الجريدة .

بعد ظهور « الجريدة » ببضعة أشهر تألف « حزب الأمة » فى ٢١ مارس سنة ١٩٠٧ ، وكان أهم عناصر برنامجه المطالبة بالدستور والاستقلال التام وإيجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطات الشعب ، وقد اختير محمود باشا سليمان رئيسا له ، ولطفى السيد سكرتيراً عاما .

ظل لطفى السيد يستخدم الجريدة كمنبر حر يعبر فيه عن مشاكل وطموحات المجتمع ، ونبض رجل الشارع إلى أن احتجبت فى سنة ١٩١٥ ، ولكن لطفى السيد لم يهدأ أو يتشاءم ، بل ظل يحمل مشعل حرية الفكر والدفاع عن استقلال مصر ، وحق كل مواطن فى التعليم حتى يعرف بعد ذلك ماله وما عليه ، وحتى يمكن تحقيق الديمقراطية بين شعب متعلم ، يقدر الحرية ، وبتحمل المسئولية ، وعمل فى كل موقع شغله على تحقيق ذلك ، وقد شغل مناصب كثيرة منها :

* عين مديرا لدار الكتب مرتين سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٢٢ .

* فى سنة ١٩٢٥ شغل منصب مديراً للجامعة المصرية ، واستقال بعد مدة ، ثم عاد مرة ثانية لها سنة ١٩٣٥.

* سنة ١٩٢٨ وزيرا للمعارف .

* سنة ١٩٤١ عضوا بمجلس الشيوخ .

* سنة ١٩٤٥ انتخب رئيسا للمجمع اللغوى .

* سنة ١٩٤٦ وزيرا للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء ، وفى كل موقع شغله كانت له بصمة واضحة وإنجاز كبير تحدث عنه الجميع .

* رأى لطفى السيد ضرورة تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوربية ، ومن هنا انتهز فرصة عمله مديرا لدار الكتب المصرية وقام بترجمة بعض كتب « أرسطو » فيلسوف اليونان الأشهر ، تلميذ أفلاطون وسقراط من قبله ، فى سنة ١٩٢٤ ترجم كتاب الأخلاق ، وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة . بل إن جانبا كبيرا منه يمهد لموضوع كتاب السياسة .

يقول لطفى السيد عن أهمية الأخلاق :

« إن غنى الأمة وسعادتها ليسا فى خصب أرضهـا ، ولا فى صفاء جوها ، واعتدال منطقتها ، وليس بضخامة مدائنها ، بل بمقـدار عدد المهذبين من أبنائها ، فهم الذين يبنون مجـدها ، وهم الذين يخلقون غناها » ..

ثم ترجم سنة ١٩٣٢ كتاب « الكون والفساد » ، وفى سنة ١٩٣٥ ترجم كتاب « الطبيعة » ، أما كتاب السياسة فقد ترجمه سنة ١٩٤٧ ، يقول عن هذا الكتاب :

أما القواعد التى وضعها أرسطو لعلم السياسة فمازالت هى القواعد السائدة بين الساسة ، وهى القواعد التى يدرسها الآن طلبة العلوم السياسية فى الجامعات ، ونحن نسمع الآن كلمات . الأتوقراطية ، والديمقراطية ، والدكتاتورية ، وهى كلها من تعبيرات أرسطو وابتداعه .. والسياسة عند

أرسطو هى أشرف العلوم ، لأنه يعرفها بأنها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع إلى السياسة سائر العلوم الضرورية لحياة الممالك ..

يقول الأستاذ رجاء النقاش فى كتابه « أدباء معاصرون » كتاب الهلال فبراير سنة ١٩٧١:

« .. والشيء الأعظم الذى استفاده لطفى السيد من فلسفة أرسطو هو الاعتماد على العقل ، أو ما يمكن أن نعتبره نوعا من « التفكير الواقعى » ... وكانت هذه فائدة كبرى استطاع لطفى السيد أن يحدث بها حركة فكرية واسعة فى بيئة غارقة فى الخرافات والأفكار الغيبية والاتجاهات العاطفية التى لا تقوم على رؤية الواقع بطريقة علمية أو دراسته دراسة عقلية عميقة . واستقرت فلسفة لطفى السيد أخيرا على محورين رئيسين :

المحور الأول هو دعوته إلى شعار مصر للمصريين .

والمحور الثانى هو الدعوة إلى الاستفادة من نموذج الحضارة الغربية استفادة كاملة ، ومن خلال هذه الفلسفة نمت الفكرة الديمقراطية نموا كبيرا . وهى الفكرة التى تؤمن بالدستور والبرلمان وانتخاب الشعب انتخابا مباشرا لمن يمثلونه ، وكانت هذه الفلسفة هى نفسها المنبع الأساسى لكثير من التطورات الكبرى التى حدثت بعد ذلك فى الاقتصاد والتعليم وحرية المرأة ..

هكذا استطاع رجاء النقاش أن يلخص لنا فكر أستاذ الجيل وفلسفته ورحلة كفاحه فى أسطر قليلة .

* كان التعليم أهم أهداف لطفى السيد ، ليس التعليم الأساسى وحسب بل والتعليم الجامعى أيضا ، وحاول أن يوجد الجامعة المصرية الكبيرة التى تتفق ومكانة مصر ، وكانت هناك جامعة مصرية تأسست سنة ١٩٠٨، ولكنها كانت تهتم بالتعليم الحر ، وليس للحكومة أية صلة بها ، فعمل ورفاق كفاحه سعد زغلول ، حسين رشدى وغيرهم على توحيد الجهود التعليمية واندماج الجامعة المصرية فى جامعة جديدة تهتم بالعلوم والآداب ، وتتبع وزارة المعارف العمومية ، بشرط ضمان حرية الجامعة الجديدة فى إدارتها المالية ، ووضع برامجها وتنفيذها ، وضمان حرية التعليم واستقلاله ، واستبقاء الحركة القومية نحو التعليم فى سنة ١٩٠٨ ، واهتم لطفى السيد أن يتضمن العقد بين الجامعة ووزارة المعارف شرط أن يكون الدكتور طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة ، واستحق لطفى السيد أن يكون أول مدير للجامعة الرسمية الجديدة سنة ١٩٢٥ ، وجعل رسالة الجامعة تقديم البحوث العلمية فى العلوم وفى الآداب للوصول إلى اكتشافات جديدة تضاف إلى ما اكتشفته الجامعات الأخرى مماله صبغة علمية بحتة ، ومماله تطبيقات عملية تنفع الناس فى أن تسخر لهم قوى الطبيعة ومواردها ، وبهذا تستطيع الجامعة الجديدة أن تحمل عن مصر واجبها من المشاركة العامة فى رقى العلوم والمعارف فى العالم .. يقول لطفى السيد :

« ومن رسالة الجامعة تربية شبيبة الأجيال المتعاقبة لتهيىء للبلاد قادتها فى جميع مرافقها .. ومن رسالة الجامعة نشر الثقافة العلمية والأدبية فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك بإباحة الانتساب إلى معاهدها المختلفة من غير قيد أو شرط ، أم بإلقاء المحاضرات العامة فى العلوم والآداب والفنون ، أم بنشر المؤلفات فى كل فرع من الفروع ..

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغه ، التجديد فى النثر والشعر ، التجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها . ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الرسالة تتناول أيضا الموسيقى والغناء ، لما لهما من الأثر الطيب فى الأخلاق ، بل لأنهما كذلك لهو جميل لابد منه . وعلى كل أمة أن ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها أن ترقى أسباب جدها العابس ..

وقد سمح لطفى السيد بقبول الفتيات فى الجامعة ، وجعل لهن ما لأخوتهن الطلبة من حقوق ، وعليهن ما عليهم من واجبات ، إيمانا منه بأنه لا فرق إنسانيا بين الرجل والمرأة ، وأن المرأة نصف المجتمع ، وأن أبسط حقوقها أن تتعلم وتعمل بجانب الرجل حتى يتقدم المجتمع . وكان يعلم أن هذه المسألة شائكة ، وأن هناك من المتزمتين من سيهاجم التحاق الفتيات بالجامعة ، وفعلا كانت هذه المسألة هى السبب فى استقالته من الجامعة سنة ١٩٣٢ .

عندما أصر وزير المعارف فى ذلك الحين « حلمى عيسى » على محاربة التحاق المرأة فى ميدان التعليم الجامعى ، ولما تمسك الدكتور طه حسين ، عميد كلية الآداب آنذاك أن تدخل المرأة الجامعة وأن تتعلم على نفس المستوى الذى أتيح للرجل ، أطيح به هو الآخر وفصل من الجامعة .

من حسن حظ لطفى السيد أن اختير وزيرا للمعارف ، أى وزيرا للتربية والتعليم ، لأن هذه الوزارة تتفق وميوله الشخصية ، وما وضعه منهاجا له لخدمة الأمة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، فهو يؤمن أن العلم هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار فى معترك الحياة للفرد ، كما أن التربية الأخلاقية هى أساس قوة الأمم .

وكان اهتمامه الأول بعد توليه الوزارة تطبيق اللا مركزية ، وتقسيم العمل باعتبار أن الوزير رجل سياسى ، لا يعمل إلا بالمشروعات الجديدة ، وتطبيق سياسة الوزارة ، وليس له معرفة بموظفى الديوان ، فأمرهم ينبغى أن يتعلق بوكيل الوزارة وشهادات المراقبين .. وخلال عمله كوزير للمعارف حاول نشر العلم بين التلاميذ ، وإتاحة الفرصة لأبناء الشعب جميعا فى التعليم ، كما حاول أن يجعل التعليم مجانا ، وقد سار الدكتور طه حسين ، تلميذه النجيب فى تطبيق سياسته هذه بعد تولى وزارة المعارف بعد ذلك ، وقال عبارته الشهيرة (إن التعليم مهم لكل إنسان كالماء والهواء) .

تميزت شخصية لطفى السيد بالهدوء ، وهو ما انعكس على برامجه فى كل عمل عمله ، وكان يكسب ود الأعداء قبل الأصدقاء ، وهو صاحب جملة أو حكمة نرددها دائما دون أن نعرف صاحبها ، وهى تقول : « الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية » .

هكذا كان الفيلسوف والمفكر المصرى لطفى السيد ، عطاء بلا حدود فى شتى المجالات ، أسهم بجهده وفكره وثقافته وماله فى كل مجالات العمل الوطنى ، دعا فى سنة ١٩١٢ إلى إنشاء نقابة للصحفيين ، واستجاب الصحفيون لدعوته وتكونت أول نقابة لهم ، انتخبت « مسيو كانيفيه » صاحب صحيفة « الريفورم » نقيبا ، وانتخبت الأستاذان لطفى السيد وفارس النمر وكيلين ، وجبرائيل تقلا صاحب صحيفة الأهرام سكرتيرا ، ولكن النقابة لم تهيىء لها فرصة الحياة أو النجاح بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى .

كان لطفى السيد فيلسوفا أيقظ أمة بحق ، كما أطلق عليه الدكتور عبدالعزيز شرف ، وألف كتابا عنه بهذا العنوان .. يقول فيه :

« توجه لطفى السيد منذ البداية نحو المستقبل انطلاقا من الحاضر وما تمثله فى رؤياه الفكرية من علم من الماضى وما استوعبه فى حافظته عن هذا الماضى وعما هو بعيد عنه .. وهكذا استطاع فى ثورته من أجل إيقاظ الأمة المصرية أن يستحضر فى أذهان تلاميذه ماضى هذه الأمة البعيد والقريب على النحو الذى يجعل من هذا الماضى كلا حاضرا فى عقل كل مصرى ..» .

لطفى السيد أستاذ الجيل بحق ، فلا يوجد كاتب ولا مفكر جاء بعده دون أن يستفيد من فكره وعطائه ، وهو أفلاطون العرب ، كما أسماه الكاتب والمفكر العملاق عباس محمود العقاد فى كتابه « رجال عرفتهم » .. يقول العقاد :

« إن لطفى السيد يعد بحق أفلاطون الأدب العربى ، وكان فى فكره أفلاطونيا بكل معنى الكلمة .. فقد كان يعيش على دستور جمهورية أفلاطون الذى يمجد المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .. لقد عاش لطفى السيد بين دفتى هذا الدستور ..» .

كان من الطبيعى أن تكرم مصر ابنها البار ، ومفكرها العظيم أحمد لطفى السيد ، فتمنحه جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٥٨ .

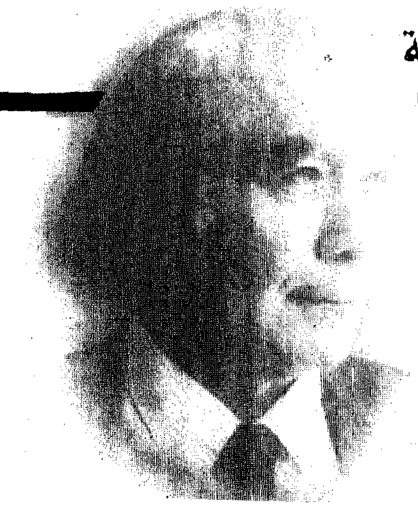
عاش لطفى السيد واحدا وتسعين عاما ، اهتم بصحته فلم يدخن ، أو يشرب القهوة ، وكان يهوى رياضة المشى ، وهو من الأدباء والمفكرين الذين لمعوا فى صالون الأديبة « مى زيادة » ، ورحل عنا فى سنة ١٩٦٣

وما أحوجنا خلال هذه السنوات الأخيرة إلى تعاليم لطفى السيد ، إلى نشر التعليم ، والإهتمام بالتعليم الجامعى الحر ، وبالفنون التى ترقى بالإنسان والأخلاق ، مثل الموسيقى والغناء ؟ .

ما أحوجنا إلى تربية أبنائنا التربية الخلقية السليمة ؟ .

ما أحوجنا إلى الحب وتطبيق شعار مصر للمصريين ، حتى يتجه كل إنسان للعمل والعرق ، وبالعمل يتحقق الأمل وتصبح مصر عظيمة دائما .

* * *



■ فى ربيع العمر . نتعلم فى كل لحظة . من كل نظرة . من كل كلمة مطبوعة نقرأها . وكل همسة نغم أو حوار .. حتى كل ضحكة وابتسامة .. كل حركة.. حتى من النحل والنمل نتعلم.

كمال الملاخ.. عاشق مصر وراهب الفكر

(١٩١٨م - ١٩٨٧ م)

في إحدى الرحلات التي يقوم بها الأدباء والفنانون إلى أماكن ثقافية أو اقتصادية هامة في مصر للتعرف عليها ، سأل توفيق الحكيم كمال الملاخ :

إيه .. أنت فين يا رجل ؟

كنت في رحلة قصيرة إلى باريس ..

يا أخي القاهرة من غير كمال الملاخ فاترة تفتقد إلى حيويتها وشبابها .

يتبسم كمال الملاخ ويقول للحكيم .. مِرسى .. وأنت أخبارك إيه ؟ ما هي آخر إبداعاتك ؟

كانت الرحلة إلى مجمع الحديد والصلب بحلوان في عام ١٩٧٥ ، وضمت يوسف السباعي ، صلاح منتصر ، توفيق الحكيم ، كمال الملاخ ، سمير صبري وغيرهم من نجوم المجتمع .

كمال الملاخ فعلا شعلة من النشاط ، ومجموعة من الاهتمامات ، وصداقات مع كل نجوم المجتمع ، ولا أبالغ إذا قلت ، صداقات مع كل المجتمع ، إنسان وهب نفسه للفن والأدب والثقافة والصحافة والعلاقات العامة ، أحب مصر من كل قلبه ، وعشق تاريخها فأصبح عالما للمصريات يذكرنا كل يوم عن طريق أحاديثه في الراديو والتليفزيون وصفحته الأخيرة بجريدة الأهرام بأننا أبناء الحضارة الأولى فنفخر بأنفسنا .. ولنبدأ الحكاية من البداية .

ولد كمال وليم يونان الملاخ في السادس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ في محافظة أسيوط من أبوين كريمين ، يعيشان في مخافة الله

وحبه ، والميل لعمل الخير ، والذهاب للكنيسة للصلاة والتعبد ، وعرف عن والده حلاوة صوته وبخاصة فى الترتيل الروحى ، وربما كان هذا سبب اهتمام كمال الملاخ طوال حياته بالصلاة وتمسكه بالقيم الدينية والأخلاقية .

التحق الطفل كمال بالكتاب ثم بالمدرسة لتلقى التعليم ، ولكن الوالد اضطر أن ينتقل إلى مدينة المحلة الكبرى بحكم عمله فى أحد البنوك ، وهناك التحق بالمدرسة الابتدائية ، وبعد انتهائه من هذه المرحلة ، انتقل والده مرة أخرى والأسرة إلى العاصمة القاهرة بحكم عمله أيضا .

استقرت الأسرة فى القاهرة ، وألحقت ابنها كمال بأشهر مدرسة ثانوية وقتذاك ، وهى المدرسة السعيدية الثانوية .. فى هذه المدرسة بدأ كمال الملاخ فى اكتشاف مواهبه واستعداداته ، اكتشف حبه للرسم ، وميله الكبير للقراءة ، بل نهمه للثقافة والأدب والتاريخ ، وكان يطالع كل الصحف والمجلات التى تصدر ، واستطاع وهو فى سن الصبا أن يقيم معرضا خاصا برسوماته فى المدرسة السعيدية ، وعمره لا يتجاوز الثالثة عشرة ، وكانت المناسبة اليوبيل الفضى للمدرسة ، حضر الاحتفال الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد ، الذى كان يصدر أيامها المجلة الثقافية الأولى فى مصر ، وهى مجلة « مجلتى » ، وافتتح الصاوى معرض الصبى ، كمال الملاخ ، الذى كان يرتدى البنطلون القصير « الشورت » وأبدى إعجابه بأسلوب الرسم ، كما تصفح مجلة المدرسة ، وكان الملاخ رسامها وسكرتير تحريرها ، وهمس الصحفى الكبير فى أذن الفنان الصغير كمال الملاخ ، « مُر على فى مجلتى ربما تجد مجالا أوسع لك فى النشر » .. ثم طلب الصبى من الأستاذ أن يوقع له فى دفتر التوقيعات فكتب الصاوى :

ألا ليت الشباب يعود يوما   فأخبره بما فعل المشيب

حصل كمال على شهادة « البكالوريا » وهى الثانوية العامة الآن ، والتحق بكلية الفنون الجميلة قسم عمارة ، ليشبع موهبته الفنية ، ولم ينس هوايته وهو طالب بالسنة الإعدادية ، فأقام معرضا لأعماله فى قلب القاهرة ، فى قاعة جولدنبرج الطويلة ، التى تطل على أشهر شوارع العاصمة شارع قصر النيل ، والتى يوجد مكانها الآن الصالون الأخضر ، ضم المعرض أعمال ثلاثة فنانين هم الفنان القصصى كامل التلمسانى ، والشاعر الايطالى الفرنسى الثقافة المصرى المولد جان موسكا تيللى ، وكان كمال الملاخ أصغرهما عمرا ، إذ كاد يترك السادسة عشرة ، وقبل الافتتاح لمعت فى ذهنه فكرة غريبة ، لماذا لا يدعو جاره فى الكلية لحضور افتتاح هذا المعرض ؟

أما غرابة الفكرة فلأن هذا الجار شخصية كبيرة معروفة ، وأيضا لأنه مصاب بكف البصر فكيف يحضر معرضا للرسم ؟

لم يهتم الفنان الشاب كمال الملاخ بكل هذا ، وذهب فعلا إلى الفيلا المقابلة لكلية الفنون بالزمالك وقابل جاره الدكتور طه حسين ، ودعاه لزيارة معرضه ، وقبل الدعوة ووعد بالحضور .

كان يوم افتتاح المعرض بمثابة عُرس ثقافى فى القاهرة حيث حضر كوكبة من شباب الفن وكبار الكتاب ، صلاح طاهر ، عبدالقادر رزق ، وسيف وأدهم وانلى ، جمال السجينى ، منصور فرج ، أبوصالح الألفى ، رخا ، صاروخان ، رشدى اسكندر ، لويس عوض ، رشاد رشدى ، إبراهيم الوردانى ، عبدالرحمن الخميسى ، أحمد الصاوى محمد ، وغيرهم .. وفجأة هرول كمال الملاخ إلى الباب ليستقبل ضيفا غير عادى ، إنه الدكتور طه حسين ، الذى صدق وعده ، واستقبله الملاخ بكل

الفرحة والسعادة ، ولم يندهش لحضوره ، فهو يعلم أن طه حسين يرى بالعقل والبصيرة كل شيء ، إنه قادر أن يجتاز غير المألوف ، ويعبر الحرمان ، ويتحدى القدر .. وسار الملاخ مع ضيفه الكبير بين ربوع المعرض يشرح له لوحاته وما تحتويه ، وما يقصده من وراء رسمه واستخدامه للألوان ، إنه يعود إلى تبسيط الماضى .. إلى البيئة العتيقة يعصر خلاصتها ليدمجها مع عناصر الحاضر متطلعا إلى خيال أعرض وأوسع .. وبينما يسير الملاخ الهوينى مع ضيفه لمح فى أحد أركان المعرض والديه ينظران له بفخر واعتزاز مما زاد فى سعادته .

فى سنة ١٩٤٣ تخرج كمال الملاخ من كلية الفنون ، وكان من أوائل الخريجين ، ورأت الكلية أن تعينه مدرسا فى قسم العمارة بها ، تضحك الحياة له وتبتسم ، ويشعر بظمأ ثقافى فكرى ، فيتجه إلى الكتب ينهل منها ، وما أحوجنا إلى القراءة والثقافة ونحن فى ربيع العمر ، يقول كمال الملاخ فى كتابه « حكايات صيف » .

« ..فى ربيع العمر ، نتعلم فى كل لحظة ، من كل نظرة ، من كل كلمة مطبوعة نقرأها ، وكل همسة نغم أو حوار .. حتى كل ضحكة وابتسامة .. كل حركة .. حتى من النحل والنمل نتعلم . لو تأملنا وتعمقنا .. أننا فى هذا العمر الأخضر .. نحتوى . نعبىء النفس والروح . ننبهر بالموهبة .. ننهل من لمعة كل فكر .. نلتهب من كل حس .. نلتهم ما نقرأ .. نمتص ونرشف كالفراش من كل زهرة متفتحة .. جذابة اللون ذكية الرائحة .. نفيد من كل شاردة أو واردة .. من كل تفاصيل واقع نحياه .. أو .. خيال نتوهمه .. تتفاوت النسبة بيننا . كل حسب قدره المرسوم . وبيئته . وموهبته ..» .

التحق الملاخ بعد ذلك بكلية الضباط الاحتياط ، وتخرج منها ليكون الأول على دفعته ، والذى يعرف الملاخ يعرف أن حياته كانت جادة دائما فهو عسكرى فى حياته العادية وربما كان هذا هو سبب تفوقه فى الكلية .

استطاع كمال الملاخ منذ شبابه أن يكون صداقات قوية ورائعة مع كبار الشخصيات ونجوم المجتمع ، وكانت هذه تفيده فى عمله وحياته عامة ، من هذه الصداقات صداقته بالكاتب الكبير أحمد الصاوى محمد ، والدكتور محجوب ثابت ، الذى كان وراء فكرة دفع شباب الجامعات والمعاهد العليا إلى تكوين فرقة ضباط الاحتياط ، والأديب الكبير توفيق الحكيم ، والمفكر الكبير الدكتور طه حسين وغيرهم .

الحياة لا تبتسم للانسان دائما ، وإنما تبتسم أحيانا وتكشر وتغضب أحيانا أخرى ، والإنسان السعيد هو الذى تبتسم له الحياة أكثر مما تغضب ، ويتعامل معها على هذا الأساس .. أخذ الملاخ يُدَرس فى كلية الفنون وينكب على الثقافة بأنواعها يعب منها ، وهو سعيد بعمله ، إلى أن ظهر عميد جديد للكلية ، وفجأة حرم هذا العميد الملاخ من تنفيذ جدوله والقاء المحاضرات ، ورفض واعترض الملاخ ، وكانت مشادة لم يعرف لها سبب .. وبينما الملاخ فى هذه الحال السيئة إذ برسالة تليفونية له تطلب منه مقابلة المستشار الفنى لوزارة المعارف وقتذاك - وزارة التربية والتعليم الآن - الدكتور طه حسين ، ويحكى لنا الملاخ فى كتابه « قاهر الظلام » حكاية هذه المقابلة وأهميتها فيقول :

« .. توجهت إلى الدكتور طه حسين . لا أدرى سببا واحدا لمقابلته .. وقدمنى إليه مدير مكتبه د . توفيق شحاته .. كان طه حسين مهيبا فى جلسته . مبتسما فى هدوء . وبادرنى بعد تحية طيبة بأنه قد سمع

عنى من توفيق الكثير . وأنك موهوب ويقال لى أنك بالنسبة إلى عمرك نابغة . ولهذا أرجو أن تنفذ لى طلبا .. ذلك أن تتجه إلى الآثار .. قلت له مالى أنا والآثار .. وقد عقدت العزم على أن أكون مع الأيام أستاذا للعمارة والفن » .

قال العميد : وهل الآثار إلا عمارة وفنا .. بل وأكثر ؟

أنت تعلم الحزبية .. إنه متصل بوزير هو نسيب له .. وهو يستطيع أن يسود دوسيهك فى غيبة من العلم بدلا من أن يشق لك طريقا مع نور الثقافة أكثر .. تعود أن ترى فى مستقبل الأيام من يفتح لك طاقة نور .. وهناك من يجد لذة فى أن يغلقها . هناك الذى يبنى ويقيم ، وهناك الهادم الذى يحطم .. لقد رأيت الظلم كثيرا ، وعانيت منه أكثر ، ولا أحب أن يظلمك أحد ، وأنا أعلم عن كفاءتك الكثير ولكنك تفاجئنى بعنادك الذى لا أعيبك عليه فأنت من الصعيد كما أعلم .. أنت من أسيوط .

ويضحك طه حسين .. يعنى « جبلى » عنى شوية . أنا صعيدى مثلك ولكن قبلك زمانا ومكانا .. ابتسمت لأرد : ومكانة أيضا يا سعادة العميد ..إذن اسمعنى إذا كانت لى مكانة عندك .. كلها ٣ شهور وأرجعك إذا لم تحب الآثار .. إنى أريد أن أمصر جو الآثار ولا أتركه إلى أبد الآبدين مع الأجانب .. أنت أولى . بحضارة بلدك .. ألم يقولوا .. أكبر منك بيوم يعلم أكثر منك بسنة .. وأنا عليم بأن حضارة مصر إنما هى أبقى على أيدى أبنائها .

ولكن متى أدرس الآثار ؟

تدرسها بعد الظهر فى الجامعة . معهد الآثار . تعمل الماجستير فيها والدكتوراه إذا أردت مع دريتون ، وهو صديقى وسيكون مديرك أيضا .

إنى انتظر منك ولك الكثير ..» .

ويسمع كمال الملاخ نصيحة عميد الأدب العربى طه حسين ويقتنع بها ، ويتجه إلى العمل بالآثار ، بل ويجد لذة فى عمله الجديد ، وبعد ثلاثة أشهر سأله الدكتور طه حسين ، عما إذا كان يريد أن يعود مرة أخرى إلى كلية الفنون ؟ فرفض قائلا :

« .. لا أنا أشكرك . لقد اخترت طريقى .. مع حضارة بلدى . سأظل مع عمالقة الزمان ..» .

بدأ كمال الملاخ العمل فى مجال الآثار عن حب واقتناع ، كان مديرا لأعمال مصلحة الآثار صباحا ، وطالبا فى معهد الآثار مساء يدرس على يدى الأستاذ الفرنسي المعروف « دريتون » ، عشق تاريخ بلاده ، صادق الحجر ، حاول أن يحل لغزا طوله أكثر من سبعة آلاف سنة ، هو لغز الحضارة الفرعونية العريقة ، وأفضى له الحجر بأسرار كثيرة وانتصارات كبيرة سنعرفها بعد قليل .. حصل الملاخ بعد ذلك على درجة الماجستير فى الآثار وفقه اللغة المصرية واستعد لإعداد رسالة الدكتوراة ، وشاء قدره أن يكون مثل القمر ، يختفى كثيرا عن القاهرة ، فى أماكن بعيدة نائية صحراوية « أسوان النوبة » ثم يظهر قليلا فى القاهرة ليسأل عن أسرته ، ويقابل أصدقاءه ، ويشترى الكتب الجديدة ، ويزور المعارض ودور السينما والمسرح .

سنة ١٩٤٩ يأتى كمال الملاخ فى عطلة ليستقر بعض الوقت فى القاهرة ، ثم ينتقل عمله معه إلى الجيزة حيث أهرام مصر ومصلحة الآثار ، وذات ليلة بينما يدخل إلى بيته فى الزمالك يلحظ وجود كارت فى صندوق البريد ، إنه من الدكتور إبراهيم عبده أستاذ الصحافة بجامعة

القاهرة ، يطلب منه التوجه إلى جريدة الأهرام لمقابلة الكاتب الكبير أحمد الصاوى محمد ، وتعجب الملاخ من هذا الطلب ، وأخذ يسائل نفسه ماذا يريد الصاوى منه ؟

فى جريدة الأهرام طلب الصاوى من الملاخ العمل فى الجريدة رساما ووافق الأخير بسرعة ، وبدأت رحلته الصحفية ، وفى اليوم التالى تعرف الملاخ على زميله الذى عين فى قسم الترجمة فى نفس اليوم ، وكانت رحلة عمل وصداقة طوال الحياة بين كمال الملاخ وأنيس منصور .. يقول الملاخ :

« .. ربما كنا واحدا انقسم إلى اثنين تجمعا فى واحد ..» . وأعرف أن هناك اتفاقا بين الصديقين ك . الملاخ و أ . منصور على أن يكتب أحدهما كتابا عن الآخر إذا ما عاش بعده ، وانتظرنا من الأستاذ أنيس منصور أن يفى بوعده ويكتب كتابا عن الملاخ ولكنه للاسف لم يفعل !، مع أننا نحتفل هذا العام بالذكرى الحادية عشر لرحيل الملاخ !!

ظل الملاخ يعمل فى مجال الآثار بجانب جريدة الأهرام ، وبجانب الرسم كان يكتب فى النقد الفنى ، ونجح فى أن تخصص جريدة الأهرام ركنا يوميا للفن ، كان يوقعه بالقناع الأبيض .

فى نفس الوقت كان يعمل فى الآثار والحفريات ، وشاء قدره السعيد أن يكتشف مراكب الشمس فى ٢٦مايو سنة ١٩٥٤ ، وفى يوم وليلة يصبح نجما عالميا تتحدث عنه وكالات الأنباء ، وتجرى معه الأحاديث ، وتنشر له التصريحات .

كان الملاخ فى ذاك الوقت قد انتقل مع صديقه أنيس منصور ، وبعض من شباب الصحافة ، إلى الصحيفة الجديدة الشابة ، صحيفة الأخبار ،

وأصبح الناقد الفنى ورئيس القسم الفنى لدار أخبار اليوم ، كذلك كان يرسم يوميات الأخبار وآخر ساعة وأخبار اليوم والجيل الجديد ، ومقالات توفيق الحكيم والتابعى والعقاد وسلامة موسى وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكل وغيرهم .

فى صيف سنة ١٩٥٧ اتصل الأستاذ محمد حسنين هيكل بالملاخ وسأله : لماذا لا تتفرغ للصحافة ؟.. هل تعود إلى الأهرام لو ذهبت أنا إليه ؟

لم يتردد كمال الملاخ لحظة واحدة ، وركب سيارته متجها إلى مصلحة الآثار وقدم استقالته فى الساعة العاشرة صباحا وبعد نصف ساعة ، كان فى جريدة أخبار اليوم يقدم استقالته .. وتوجه بعد ذلك إلى الأستاذ هيكل ليعود إلى صحيفة الأهرام متفرغا للعمل الصحفى ، ومع ذلك لم ينس تاريخ بلاده ، فظل يعمل فى مجال الآثار كخبير غير متفرغ ، مع اكتشافه لمراكب الشمس ، اكتشف أول كوبرى فى التاريخ ، وهو أول مصرى يرمم أهرام مصر وأبوالهول وبرج العرب وجزيرة فيلة ، كما أعاد ترميم وتشييد أقدم مسلة فى مصر ، واشترك فى إعداد المادة العلمية للصوت والضوء لمناطق الأهرام والكرنك وفيلة ، وفى إعداد وتطوير متاحف الأقصر والنوبة والمصرى ، وكان أستاذا فى حضارة مصر وآثارها فى الجامعات العالمية ، وعضو مجلس إدارة هيئة الآثار .

تفرغ الملاخ للعمل الصحفى ، وأصبح راهبا فى محرابه ، واستخدم ثقافته المتنوعة الشاملة فى تقديم الجديد والمفيد للقارىء ، واشتهر فى الأهرام ببابه اليومى « من غير عنوان » وحتى الآن تستطيع أن تتعرف على خطه وبصمته من هذا الباب الذى مازال يعلوه خطه ، وكان الملاخ صاحب مدرسة فى الايجاز وكتابة الأسماء بالأحرف الأولى مثل ك . الملاخ ، أو

ص . طاهر .

واشتهرت عباراته القصيرة المفيدة ، فهو يحترم وقت القارىء ، ويقدم له ما يريد بسرعة ، فنحن - كما كان يقول - فى عصر السرعة .. ولم ينس الملاخ عشقه لبلده ، وحضارة مصر وكان يذكرنا يوميا من خلال بابه المقروء بحضارة بلادنا عن طريق تبسيط المعلومات التاريخية لتصبح معلومة مقبولة لقراء الصحف على اختلاف مشاربهم ، كان الملاخ يجعلنا كل صباح ونحن نقرأ بابه اليومى نعتز بأننا أبناء الفراعنة ، أصحاب أول حضارة عرفها الانسان .. وهل هناك انتماء أكثر وأجمل من ذلك ؟

قال الدكتور طه حسين عن صفحة كمال الملاخ فى جريدة الأهرام إنه استطاع أن يجعل القارىء يقرأ الصحيفة من آخرها لأولها ، كذلك جعل الناس تصبّح على بعضها وتعرف أخبار العالم من خلال الصفحة الأخيرة .

عرف عن كمال الملاخ اعتزازه بنفسه وكبرياءه المتواضع ، فهو طويل القامة عريض المنكبين ، منفوخ الصدر ، حاد الملامح كثيف الحاجبين ، طويل الشعر بعد منتصف الرأس ، مظهره يوحى لك بالأبهة والعظمة ، ولكنك إذا جلست معه وعرفته على الحقيقة ، تجده يحمل قلب طفل برىء ، متواضع على الرغم من علمه وثقافته ، بسيط رغم مظاهر العظمة والأبهة ، هادىء النفس رغم بركان ثورته أحيانا .

يحكى لنا أنيس منصور فى كتابه « فى صالون العقاد كانت لنا أيام » عن موقف من هذه المواقف التى تظهر اعتزاز الملاخ بنفسه وتواضعه فى نفس الوقت .. يقول فى صفحة ٦٤٣ : « .. قال لى كمال الملاخ : إننى حزين على وفاة هذا الرجل العظيم وأسف لهذه المناقشة الحادة التى دارت بينى وبينه قبل أن يموت .. فقد طلب منه المخرج عاطف سالم أن يتوسط لدى الأستاذ العقاد لكى يخرج له رواية « سارة » والتقى المخرج والمؤلف فى

مكتبة الأنجلو . ووافق الأستاذ . ولكن لم يجرؤ عاطف سالم أن يعرف منه الأجر الذى يريده .. وطلب إلى كمال الملاخ أن يعرف ذلك من الأستاذ . وكلمه الملاخ فى التليفون قال : المخرج يريد أن يعرف كم تتقاضى عن روايتك .. قال الأستاذ : ما يتقاضاه طه حسين لا أكثر ولا أقل .. ولكن لعلك تّعرف أن روايتى ليست بها أحداث .. إنها تحليلية ، ولا أعرف كيف يمكن إخراجها ، ولا من التى تؤدى هذا الدور ؟

قال الملاخ : أرشح مديحة يسرى .. فهى أقدر من أى واحدة أخرى ، ثم أننى سوف أدخل بعض التعديلات على الرواية .. رد العقاد : ما هذا الذى تقول ؟.. إننى لا أحب أن أتعامل مع مثلك من الجامعيين الأجلاف .. هل تعرف من الذى تكلمه ؟.. أنت تكلم العقاد :.

وأنت تكلم الملاخ .. إذا كنت أنت العقاد .. فأنا الملاخ ..

قال الأستاذ : ومن تكون أنت يا هذا ؟.. العقاد هو الأهرام .. وأنت تتسول أمام الأهرام .. أن أقصى ما تستطيعه هو أن تشير بأصبعك إلى الأهرام ، فإذا فعلت ذلك فأنت تستحق أعلى جائزة أدبية .. هذه حدودك أنت وغيرك .

ولم يعرف كمال الملاخ السبب الرئيسى لثورة الأستاذ ، وتضايق من هذه اللهجة البركانية للأستاذ ، وقال له : يا أستاذ عقاد : أنت الأهرام هذا صحيح .. ونحن ظلال إلى جوارك .. بل إذا كنا جامعيين فلأننا تخرجنا فى جامعة الجامعات التى اسمها عباس العقاد .. فكيف تغضب من تلامذة تلامذتك ؟..كيف تنكر عليهم أن يتمسكوا بكبريائهم التى تعلموها منك ؟!

وعندما هدأ الأستاذ لهذه العبارات التي أسعدته ، وعندما اعتذر له كمال الملاخ عن سوء الفهم ، شكره الأستاذ على ذلك واعتذر له ..»

هكذا كان الملاخ معتزا بنفسه في تواضع العلماء .اهتم كمال الملاخ بفن السينما ، وكان يكتب في هذا المجال ، حتى تقوم السينما بدورها الاعلامي الكبير في التنوير ، وكان عضوا في لجان التحكيم في المهرجانات الدولية المختلفة ، ومنها مهرجان برلين السينمائي الدولي ، كذلك أسس جمعية كتاب ونقاد السينما المصريين سنة ١٩٧٧ ، التي قامت بدورها بإقامة أول مهرجان سينمائي دولي بالقاهرة سنة ١٩٧٨ ، وإقامة مثل هذا المهرجان في مصر هو احترام دولي لها وشهرة عالمية لمصر بجانب تاريخها ، كذلك أقام الملاخ أول مهرجان سينمائي بالأسكندرية لدول حوض البحر المتوسط ، واهتم بإقامة مهرجان للسينما الأفريقية في أسوان .

كان الملاخ شعلة من النشاط الدائم من أجل مصر وأبناء مصر ، وبجانب اهتماماته هذه كان أديبا من الطراز الأول ، صدر له ٣٢ كتابا منها .. « أغا خان » و« خمسون سنة من الفن » و« حكايات صيف » و« صالون من ورق » وقد فاز هذا الكتاب بجائزة الدولة التشجيعية في أدب الرحلات سنة ١٩٧٢ ، كما ترجم إلى اللغة الانجليزية .. « النار والبحر » .. « قاهر الظلام » عن حياة عميد الأدب العربي طه حسين ، وقد ترجم إلى اللغتين الفرنسية والصينية وتحول إلى فيلم سينمائي « بيكاسو المليونير الصعلوك » .. « الحكيم بخيلا » .. « حول الفن الحديث » .. « صقر الحرية » « سويسرا » « التيه » و« هؤلاء دخلوا التاريخ » و« جمال السجيني » و« ذهب توت عنخ أمون » صدرت منه ثلاث طبعات في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفاز بلقب الكتاب الأول المباع في أمريكا سنة ١٩٧٩، وترجم إلى اللغات الفرنسية والألمانية والايطالية واليابانية والسويدية .. « وكتاب كنوز النيل » صدر باللغتين الانجليزية واليابانية .

كما أصدر الملاخ عدة كتب مبسطة للأطفال منها .. « عروس النيل » و«حديقة الحيوان » و«أحمس قاهر الهكسوس » .. « تحوتمس الرابع » و « الناصر صلاح الدين » و« أم كلثوم » قبل رحيله ألف كتابا عن القاهرة باللغة الانجليزية ترجم إلى عدة لغات أخرى ، وكان ينوى أن يتبع هذا الكتاب بكتب أخرى على شكل سلسلة عن أهم المدن المصرية ولكن الحياة لم تسعفه لتحقيق هدفه .

كان من الطبيعى أن تكرم الدولة كمال الملاخ على دوره الكبير فى تثقيف المواطنين عن طريق الصحافة والكتب والسينما وأحاديثه فى الراديو والتليفزيون ، ففاز بجائزة الدولة التشجيعية فى الأدب ، والتقديرية فى الفن سنة ١٩٨٤

كما نال تقديرا عالميا من أكثر من دولة ، فقد اختاره علماء الآثار الألمان عضوا فخريا فى رابطتهم سنة ١٩٨٢ ، فى سنة ١٩٨٣ منحته جامعة « واسيدا » اليابانية شهادة تقدير فى مناسبة عرض مجموعة من الآثار المصرية هناك ، وفى سنة ١٩٨٥ منحه علماء المصريات بدولة تشيكوسلوفاكيا السابقة ، الزمالة الفخرية لرابطتهم ، وبناء على طلب جامعة « كلورادو الأمريكية » وافق مركز دراسات أبحاث الفضاء على اطلاق اسمه على أحد النجوم وذلك فى مناسبة مرور أربعين سنة على بدء اشتغاله فى الدراسات والحفائر الأثرية .

لم يتزوج كمال الملاخ ، عاش راهبا للفكر والثقافة ، أحب فنانة معروفة وكاد يتزوجها ولكنه تراجع من أجل عمله وفنه وعائلته التى كان يعتز بها ويهتم بكل أفرادها حتى الأطفال ، كان بارا بعائلته ، وبأصدقائه وكل معارفه ، واهتم بأن يخلد اسمه فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة فشجع واختار بعض أبناء إخوته الذين وجد فيهم موهبة واستعدادا للعمل الصحفى ، وكانت الصحفية الأولى التى اختارها من العائلة وشجعها ا حتى وهى طالبة فى الجامعة الأستاذة منى الملاخ الصحفية بدار الهلال مجلة

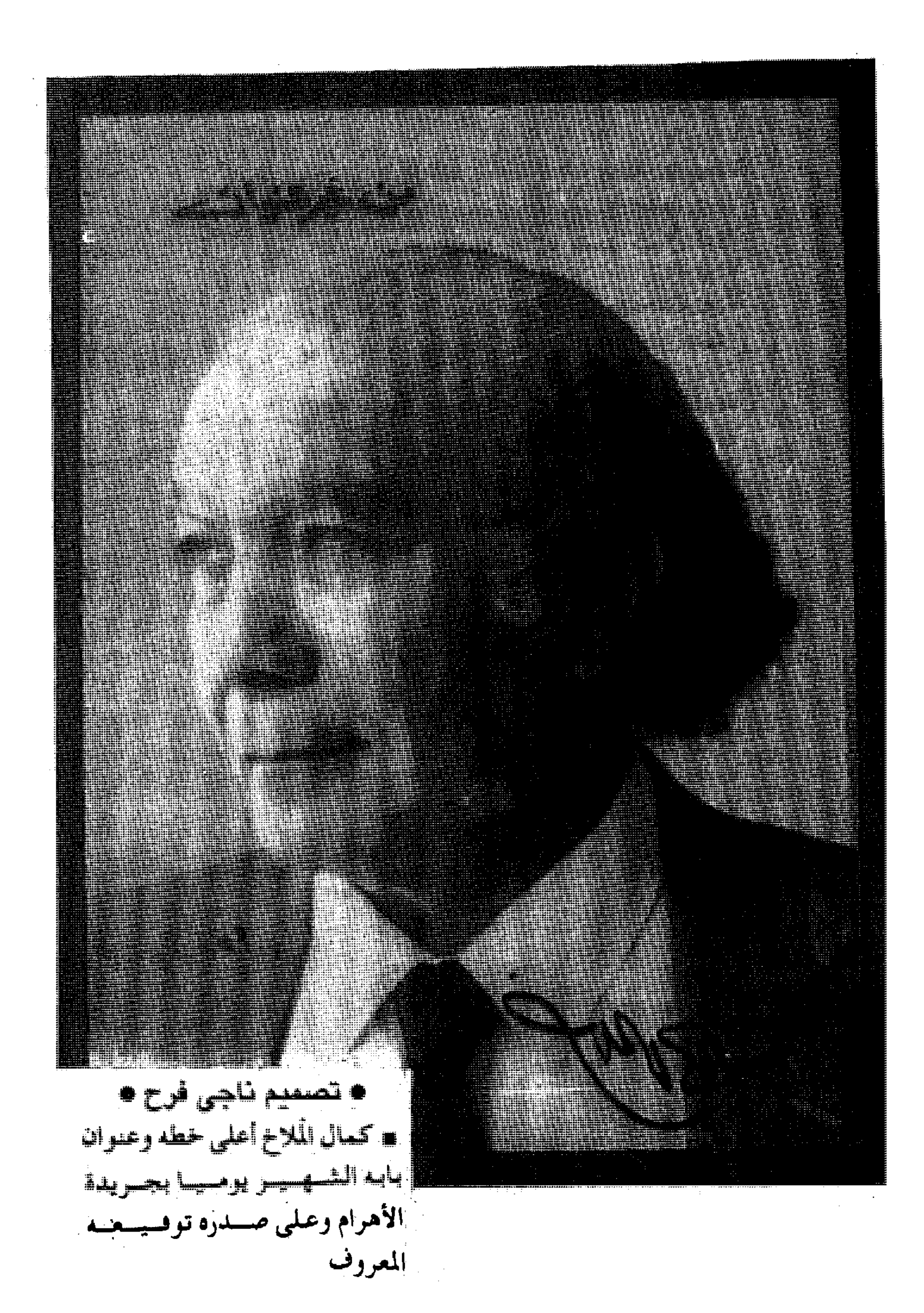
المصور ، ثم اختار بعد ذلك الأساتذة أليس الملاخ « مدير تحرير مجلة نصف الدنيا حاليا ، والأستاذة نادية الملاخ ، والأستاذة شهيرة الملاخ وعملن جميعا فى جريدة الأهرام الغراء .

كان كمال الملاخ يتشرف بشقيقه عالم الطاقة الدكتور رجائى الملاخ الذى كان يعمل رئيساً لقسم الاقتصاد بجامعة « كلورادو » بأمريكا ، وكان مستشارا فى شئون الطاقة لحكومات عدة دول عربية مثل الكويت وقطر والمملكة العربية السعودية واليمن وغيرها .

ومن عجب أن يرحل الدكتور رجائى الملاخ مع بداية عام ١٩٨٧ ، وفى نفس العام ، فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر يرحل كمال الملاخ عن عالمنا ، وهو فى كامل قوته وصحته ، هل رحل حزنا على أخيه ؟ أم رحل حزنا على عدم التقدير ؟.. لست أدرى !

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، تقوم الدكتورة الأمريكية (دوروثيا الملاخ) زوجة الدكتور رجائى الملاخ باتمام رسالة زوجها فى مجال الطاقة ، وبخاصة أنها كانت تعمل مساعدة له ودرست وعرفت كل شىء عن تخصصها ، وهى بذلك تحى ذكرى زوجها عالم الطاقة ، فهى تحمل قلبا ينبض بالحب والوفاء لزوجها ولمصر التى أنجبته .

ولكن كمال الملاخ - للأسف - لا يجد من يكرمه ويحى رسالته وذكراه ، حقيقة أنه تكونت جمعية باسم أصدقاء كمال الملاخ يرأسها الفنان الكبير القدير كمال الشناوى ، وترعاها الفنانة الوفية صفاء أبوالسعود ، ولكن هذا لا يكفى ، فقد عاش كمال الملاخ ينشر نور الثقافة والأفكار العصرية والعلم بين كل الناس الشباب والشيوخ ، بل والأطفال ، فلماذا لا نكرمه بعد وفاته بطبع كتبه طبعات شعبية ؟ وترجمة كتبه التى



• تصميم ناجي فرح •

■ كمال الملاخ أعلى خطه وعنوان بابه الشهير يوميا بجريدة الأهرام وعلى صدره توقيعه المعروف

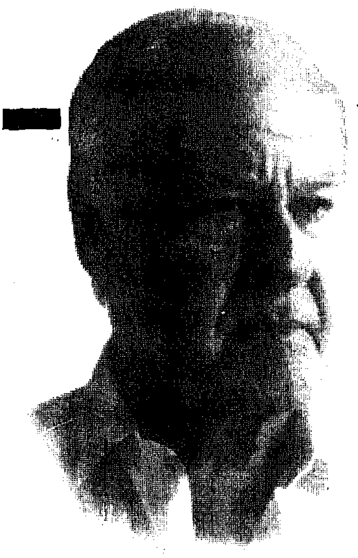
ألفها باللغة الانجليزية إلى اللغة العربية ؟ لماذا لا يخصص مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الذى أنشأه وأسسه جائزة باسم كمال الملاخ ؟

من العجيب أن يختفى تمثال كمال الملاخ من متحف مراكب الشمس ، وبدلا من تكريمه تغييبه ! . هل هذا معقول يا أصحاب العقول ؟

رحم الله كمال الملاخ الفنان والأديب والإنسان ، عاشق مصر وراهب الفكر .







■ الثقافة هى التى تصنع الحضارة ، وليست هناك حضارة بلا ثقافة ، ولا ثقافة بلا حضارة فى النهاية .

صلاح طاهر..
الفن والحضارة

(١٩١١م-)

المصريون أول من رسموا ونحتوا ، وتركوا لنا آثارا تتحدث عنهم ، عن حضارتهم القديمة ، التى ولدت مع أول الزمان ، والتى كانت المشعل الأول فى الحضارة الإنسانية ، وحتى كتابتهم المسماه « الكتابة الهيروغليفية » معناها العلامة المقدسة المحفورة ، ولولا هذه الكتابة ، ما كنا عرفنا حضارتهم العظيمة .

ولأن أجدادنا الفراعنة برعوا فى الرسم والنحت فإنه من الطبيعى أن يولد المصرى وهو متذوق لفن الرسم والنحت ، بل من الطبيعى أن يبرع الأبناء مثل الآباء والأجداد ، ونجد من المصريين فنانين عظاما فى شتى فروع الفن ، وبخاصة الفن التشكيلى ، على مرّ التاريخ ، ومن منا لم يمتع عيناه بمشاهدة بعض أعمال الأخوين أدهم وسيف وانلى ، وجاذبية سرى ، جمال السجينى ، حامد سعيد ، تحية حليم ، جورج البهجورى ، حامد ندا ، حسن حشمت ، حسين بيكار ، رشدى اسكندر ، زينب السجينى ، صلاح عبد الكريم ، صلاح جاهين ، إيزاك فانوس ، فاروق شحاته ، محمد صبرى ، محمود سعيد ، محمود مختار ، منير كنعان ، فاروق حسنى ، يوسف فرنسيس ، ناجى كامل ، يوسف كامل ، مكرم حنين ، وجدى حبشى ، منير كنعان ، منصور فرج ، أحمد فؤاد سليم ، صبرى راغب ، أبو صالح الألفى ، إنجى أفلاطون ، هند شلبى وغيرهم ومن هؤلاء الفنانين الكبار ، الذى مازال عطاؤه واضحا فى الفن والثقافة والريادة الفكرية ، الفنان الكبير صلاح طاهر .

شهد شارع الجنزورى بالعباسية بالقاهرة مولد الطفل صلاح طاهر ، فى ١٢ مايو سنة ١٩١١ ، كان والده يشتغل بالأعمال الحرة ، وعرف عنه الهدوء والثقافة ، فقد كان محبا للقراءة ، ويملك مكتبة متواضعة فى البيت ، كانت الزاد الأول الثقافى لطفلنا ، أما الأم فكانت أم واعية حانية تدفع بطفلها إلى التعلم والتجربة ، فعندما أراد صلاح شراء « نحلة

خشب » يلعب بها مثل الأطفال الآخرين ، لم تشتر له نحلة جاهزة ، بل أعطته نقودا ليذهب إلى النجار ليصنع له « نحلة » أمامه ، حتى يعرف كيف تصنع النحلة وتزداد خبرته بالحياة ، كذلك كانت تتمتع بالحنان الزائد والتضحية من أجل كل أفراد الأسرة ، يذكر الفنان صلاح طاهر كيف كانت أمه تجرى له عمليات التدليك « المساج » عندما كان بطل مصر فى الملاكمة ، وهو فى سنى الصبا ، وكانت مصابة بالشلل النصفى ، فكانت تستخدم يدها السليمة فى التدليك ، وهى تتألم من نصفها الآخر المريض .

شب صلاح هادىء النفس ، محبا لوالديه وإخوته ، سوى الشخصية ، ورث عن أمه الحب والمودة والرحمة ، وتعلم من والده الطموح عادة القراءة التى لازمته طوال الحياة ، وأفادته أكبر فائدة .

التحق الطفل صلاح طاهر بمدرسة الحسينية الابتدائية ، وكان زميله ورفيق عمره بعد ذلك ، الفنان مدحت عاصم ، واهتم بالرياضة فاشترك فى القسم المخصوص بالمدرسة ، وهو القسم الذى يتعلم أفراده الألعاب السويدية والتمرينات الرياضية المفيدة للجسم ؛ بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية ، استكمل فناننا دراسته الثانوية فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، وفى المدرستين مارس التلميذ صلاح طاهر الرياضة فى القسم المخصوص ، وكذلك مارس هواية الرسم فى جمعية الرسم ، وفي المدرسة الثانوية تعلم العزف على آلة الكمان الموسيقية .. ومن الطريف أن صلاح طاهر اختار مهنته الفنية وهو فى السابعة من عمره ، يقول :

« كانت توجد فى شارع عبد العزيز بجوار ميدان العتبة ، مكتبة اسمها المكتبة السلفية ، اشتهر صاحبها « محب الدين الخطيب » بحب الأدب والميل إلى الفكر ، وكان يقيم كل أسبوع داخل المكتبة صالونا أدبيا

لكبار الشخصيات والأدباء ، وكان والدى يصطحبنى معه إلى هذه المكتبة وهذا الصالون ، وفى أحدى المرات سألنى أحد الرواد عن العمل الذى أتمنى أن أعمله عندما أكبر ؟ وكان ردى السريع عليه :

أنا أريد أن أكون فنانا كبيرا مثل « رافاييل » وتعجب الرجل من إجابتى .. وكنت قد سمعت عن رافاييل من أخى الكبير الذى كان يكبرنى بعشرين سنة ، وكانت له اهتمامات فنية ، وقد استفدت منه كثيرا ، فقد كان بمثابة والدى الثانى ..» .

ويبتسم الفنان صلاح طاهر ليستكمل القصة فيقول : « بعد خمسة عشر سنة من هذا اللقاء ، قابلت هذا الشخص فى افتتاح معرض بالأسكندرية ، وذكرنى بما قلته له وأنا طفل فى السابعة .. قال لى من صغرك وأنت تريد أن تكون فناناً تشكيلياً !!» .

هكذا كانت الطفولة غنية بهواياتها وثقافتها والقراءة الكثيرة للكتب فقد شغف صلاح طاهر بالمعرفة ، وقرأ فى شتى مجالاتها واشترى الكتب بمصروفه الخاص ، بجانب الدراسة وبجانب الرياضة البدنية فى القسم المخصوص ، ثم فى لعبة الملاكمة ، فقد كان بطل مصر فى الملاكمة فى وزن الخفيف المتوسط وعمره حوالى ستة عشر سنة ونصف وظل يحتفظ بهذه البطولة أربع سنوات ، والعجيب أنه لا يفخر بذلك ، بل يحاول أن ينسى ذلك ، ويسقط هذه البطولة من حياته .. يقول صلاح طاهر : « أنا أخجل من هذه الفترة فى حياتى ، والتى حصلت فيها على لقب بطل مصر فى الملاكمة ، لأن هذه اللعبة عنيفة جدا ولا تتفق مع طبيعة الفن .. على أى حال أنا انقطعت عن ممارستها نهائيا بعد أربع سنوات ، واعتنقت اليوجا بعد سبع أو ثمانى سنوات تقريبا .

واليوجا التى أمارسها ليست جسدية وحسب « الهاثا يوجا » وإنما أمارس « الكارما يوجا » و«المانطا يوجا » و« والراجا يوجا » يعنى أقوم

بممارسة عدة أنواع من اليوجا ، عادة أمارس اليوجا الجسدية مع اليوجا الروحية ، أمكث حوالى ربع ساعة فى البداية فى حالة تأمل ، وهذه تساعدنى كثيرا فى الاسترخاء العصبى والفكرى ،ثم هى تساعدنى أيضا فى التصورات التى أريد أن أحققها فى العمل الفنى .. وحتى الآن عندما انشغل بمشاكل الحياة وانصرف عن ممارسة اليوجا أسبوع أو أسبوعين وأحيانا شهر ، أشعر أننى لست أنا ، لست صلاح طاهر ، وبمجرد أن أعود لممارستها أشعر أننى صلاح طاهر فعلا » .

فى سنة ١٩٢٩ حصل صلاح طاهر على شهادة « البكالوريا » وكان يعرف طريقه ، فالتحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، وتقديراً لموهبته الفنية قضى سنة واحدة فى مرحلة الإعدادى ، بدلا من سنتين ، واشتهر بين زملائه بعشقه لفنه وثقافته الرفيعة ، وقد أتيحت له وهو فى هذه السن الصغيرة ، تسع عشرة سنة ، فرصة ذهبية استطاع أن يستغلها أفضل استغلال وهى تعرفه على المفكر الكبير عباس محمود العقاد ، وكان فى الخمسين من عمره ، وعلى الرغم من فارق السن إلا أن الصداقة الوطيدة جمعت بين الطالب الفنان والكاتب العملاق .. قال لى صلاح طاهر :

« .. فى سن التاسعة عشر ، كنت طالبا بالسنة الأولى فى مدرسة الفنون الجميلة العليا ، وكنت بطل مصر فى الملاكمة فى الأعوام السابقة ، كما كنت أهوى العزف أو اللعب على آلة الكمان ، بجانب هواية القراءة التى كنت قد اكتسبتها من والدى ، بل وتفوقت عليه فى شراء الكتب الجديدة ، والقراءة فى شتى الموضوعات وبخاصة الفن والفلسفة والعلم ، فى هذا العام دعانى أحد أصدقائى لحضور حفل عيد ميلاده والمشاركة بالعزف على الكمان ، وذهبت إلى بيت صديقى فى مصر الجديدة ، وفوجئت بالأستاذ عباس العقاد هناك ، فقد كان صديقا لوالد صديقى ، وبادرنى قائلا : ألست أنت صلاح طاهر بطل مصر فى الملاكمة ؟ قلت

نعم .. قال واليوم أنت عازف على الكمان ، وابتسم ابتسامة عريضة ، مندهشا كيف أستطيع الجمع بين هوايتين ، تعتمد الأولى على القوة ، بينما تعتمد الثانية على الرقة ، وأخذ العقاد يناقشنى فى كل شيء ، وبخاصة عندما عرف هوايتى للقراءة ، ناقشنى فى أحدث كتاب قرأته - أيامها - وكان عن الفيلسوف الألمانى « شوبنهاور » ، وأخذنا الوقت والحوار الجميل ، فلم أعزف على الكمان ، وأخذت استمع للأستاذ ، وكانت بداية لصداقة حميمة ، ومشوار ثقافى أعتز به ، وطلب منى أن أحضر صالونه الأسبوعى ، كل يوم جمعة ، ومن ساعتها أصبح العقاد الأب الروحى لى ، فقد كنت أصغر من يحضر هذا الصالون » ..

الذى يتعرض للكتابة عن حياة الفنان الكبير صلاح طاهر يقف عند هذه المرحلة الهامة ويتأمل هذه الصداقة الجميلة المثمرة ، التى ساعدت فى صقل الشخصية الفنية والثقافية والاجتماعية لصلاح طاهر ، لنعرف كيف كان الأساتذة يدفعون بتلاميذهم نحو النجاح ومزيد من العطاء والتألق ؟ وهو ما نفتقر إليه اليوم !

هذه خطوة هامة فى حياة فناننا الكبير ، أثرت كثيرا فى مستقبله بالإيجاب والتألق والنجومية ، فقد أصبح بعد ذلك عضوا فى صالون العقاد ، بل أصبح عضوا مميزاً ، وهو الوحيد الذى كان يمكن له أن يتجول فى مكتبة العقاد ، ويستعير منها أى كتاب ، وكان العقاد يهوى المشى بعد تناول العشاء فى الساعة الثامنة مساء كل يوم ، فى الطريق المؤدية إلى مطار القاهرة ، وبعد أن عقدت الصداقة بين الفنان والكاتب العملاق ، كان لصلاح طاهر شرف مرافقة العقاد ، كل يوم تقريبا فى هذه الجولة المسائية ، ولم تخلُ هذهٰ الجولة من ثقافة ومناقشة مفيدة ، فكان العقاد يسأل الفنان عن أحدث قراءاته ، ويحاوره فيها ، ويضيف من عنده ما يفيده ، وهذا يذكرنى بجماعة المشائين أتباع الفيلسوف « أرسطو » الذين كانوا يناقشون

كل القضايا الفلسفية وهم سائرون ، وبذلك يمارسون رياضة بدنية مع رياضة عقلية .. من الموضوعات التى اهتم العقاد أن يناقشها مع صلاح طاهر كتاب عن التغذية عنوانه « نظام هيى للتغذية » Hay System، وذلك لأن الفنان كانت له اهتمامات رياضية ، وبالتالى اهتم بشئون التغذية ، كان العقاد يسأل عن الطعام المفيد والمتناسق ، وكان الفنان يشرح له نظرية السيد « هيى » فى هذا المجال .

حصل الفنان صلاح طاهر على بكالوريوس الفنون الجميلة فى سنة ١٩٣٤ ، وعمل مدرساً للرسم بمدرسة المنيا الابتدائية لمدة عامين ، أقام خلالهما معرضه الأول هناك ، ثم انتقل إلى الأسكندرية مدرسا بمدرسة العباسية الثانوية ، وهناك أقام معرضه الثانى سنة ١٩٣٩ ، ومن الطريف أن الدكتور عبد القادر حاتم المشرف على المجالس القومية المتخصصة سابقا كان تلميذه في هذه المدرسة ، ثم انتقل الفنان بعد ذلك إلى القاهرة ليعمل مدرسا للرسم بمدرسة فاروق الأول الثانوية ، بعدها اختارته كلية الفنون الجميلة مدرسا للتصوير الزيتى بها سنة ١٩٤٢ ، ومع بداية سنة ١٩٤٣ تولى مهمة الأستاذ المشرف على « مرسم كلية الفنون الجميلة » وهو ما يعتبر أول شكل من أشكال الدراسات العليا ، أو التفرغ الفنى فى مصر .. وكان يحظى بعضوية المرسم المتفوقون من خريجى أقسام الفنون بالكلية لمدة عامين أو ثلاثة ، يقضونها فى تفرغ تام للعمل الفنى ، شتاء بالأقصر بين تراث طيبة الفرعونية والحياة الريفية بالصعيد ، وصيفا بحى الغورية فى القاهرة القديمة حيث التراث المعمارى الإسلامى والحياة الشعبية فى المدينة .

قضى صلاح طاهر عشر سنوات فى هذه المهمة متفرغا للفن ، متأملا فى الطبيعة ، معايشا لآثار أجداده ، متمعا بالتراث الإسلامى والعادات والتقاليد الشعبية فى حى الغورية ، واستطاع أن يستغل وقت الفراغ فى إشباع نهمه للمعرفة والقراءة ، فقرأ الكتب الأساسية فى تاريخ الفن

والفلسفة وغير ذلك ، وكانت هذه الفترة من الفترات الخصبة فى حياته وإنتاجه ، فرسم عدة لوحات للطبيعة والآثار والأشخاص ، مما دفعه بعد ذلك لإقامة معرضه الثالث والمهم سنة ١٩٥٣ فى النادى الثقافى بالقاهرة ، واستطاع فى هذا المعرض أن يزاحم الفنانين المعروفين ، فى ذلك الوقت ، ويفرض نفسه على الساحة الفنية كأحد أقطابها .

فى سنة ١٩٥٤ ترك صلاح طاهر العمل بكلية الفنون الجميلة ليكون مديرا لمتحف الفن الحديث بالقاهرة ، ثم تولى إدارة المتاحف الفنية سنة ١٩٥٨ ، بعدها عمل مديرا لمكتب وزير الثقافة للشئون الفنية ، وفى سنة ١٩٦١ أصبح مديرا لإدارة الفنون الجميلة بوزارة الثقافة ، ثم مديرا لدار الأوبرا من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٦ ، ثم استقر بعد ذلك فى عمله كمستشار فنى لمؤسسة الأهرام حتى اليوم ، وقد أتاح له هذا العمل الاستغراق فى الانتاج الفنى والتفرغ للإبداع .

وقد لمع صلاح طاهر فى كل عمل قام به ، وكل موقع شغله بفضل حبه للعمل وعشقه للفن ، مما جعله يرتقى دائما لأعلى المناصب ، ولم ينس مهمته الأساسية فى تقديم الفن الراقى للجماهير ، فعكف فى مرسمه الخاص بالزمالك يرسم ويبدع ويشارك فى نشر الجمال .

وبجانب أعماله هذه اهتم بتدريس الفن للأجيال الجديدة ، فعمل أستاذا غير متفرغ بمعهد الآثار وكلية الآداب ، ومعهد السينما ، وكلية الإعلام ، وحول مادته « تاريخ الفن » إلى مادة ثقافية سهلة بسيطة تضم فلسفة الفن وسيكولوجية الإبداع والتذوق الفنى ، ونشأ على يديه جيل من المثقفين والفنانين المبدعين .

ولصلاح طاهر محاولات كثيرة فى نشر الوعى الفنى والتذوق بين المواطنين ، فقدم حوالى مائة وخمسين برنامجا تليفزيونيا عن الثقافة الفنية ،

ووحدة الفنون ، وارتباط الفن بالحضارة ، وكيفية التذوق الفنى والنقد الفنى ؟ ولاشك أنها إسهامات واضحة أخرجت جيلا كاملا يؤمن بضرورة الفن وأهميته فى حياتنا وتقدمنا ، فإذا أضفنا إلى ذلك المعارض الكثيرة التى أقامها فى مصر والخارج عرفنا الدور الريادى الفنى والثقافى الذى لعبه ومازال يلعبه من أجل نشر الوعى الفنى والإحساس بالجمال .

أقام صلاح طاهر عددا كبيرا من المعارض داخل مصر فى شتى محافظات الجمهورية ، وخارج مصر فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفيتى السابق ، والصين وانجلترا وفرنسا وايطاليا والمجر وتشيكوسلوفاكيا السابقة (جمهورية التشيك وجمهورية السلوفاك الآن) وبيروت وقطر وغيرها ، وقد استن الفنان عادة محمودة خلال إقامة معارضه فى الخارج ، وهى أن يهدى لوحات المعرض بعد انتهائه لسفارة مصر حتى تقوم بدورها بإهدائها باسم مصر للشخصيات الهامة فى ذلك البلد .

هكذا لم يهتم الفنان الكبير بالمادة ، وبيع لوحاته ، كما يفعل الفنانون عادة ، بل اهتم بنشر الفن وإشاعة التذوق الجمالى بين الناس .. ومن هنا فأنت تجد لوحاته تصافح نظرك وتبهج نفسك ، وتسعد إحساسك فى كل مكان ، مثل مؤسسة الأهرام ، والمؤسسات الأخرى وبعض الوزارات والفنادق ودور الفن .

أما كيف تبهج اللوحات نفسك ، وتسعد إحساسك ، فلأن اللوْحة التشكيلية مثل السيمفونية الموسيقية ، لا تخضع للفهم العقلى منذ الوهلة الأولى ، كقطعة الشعر أو القصة القصيرة أو الرواية ، وإنما هى إحساس يتدفق إليك أثناء الرؤى وبعده ، وكلما كان الفنان دقيقا بارعا متمكنا من نفسه ، كلما زاد إحساسك بالجمال والبهجة والسرور ، أو إحساسك بمشاعر أخرى يهدف إليها الفنان فى أعماقه .

يقول صلاح طاهر :

« لابد أن تتحقق قوانين الموسيقى فى العمل الفنى ، ففى اللوحة الفنية مثلا لابد أن يكون هناك تناغم فى الألوان ، وابتكار فى التعبير بالألوان ، ابتكار فى لمسات الفرشاة مع بعضها البعض ، الاهتمام بالبناء المعمارى للوحة ، وهو نفس البناء المعمارى الموجود فى السيمفونية ، وهو الموجود فى تكوين العمارة نفسها .. والواقع أن كل فن فى الدنيا يتطلب أن يتحقق فيه عنصرين أساسيين هما : عنصر التكنيك أو الصنعة ، والعنصر الثانى هو الموسيقية ، فإذا اعتمد الفن على الصنعة ، فقط يصبح جافا باردا ، واذا اعتمد على الموسيقية وحسب سيكون عملا غير متماسك أو متكامل إذاً لابد من وجود العنصرين حتى يتحقق العمل الفنى » .

بدأ الفنان صلاح طاهر حياته الفنية فى الرسم بالأسلوب التقليدى وقتذاك - ١٩٣٤ - وهو الأسلوب الوصفى ، فرسم الوجوه الشخصية ، والحياة الريفية ، والمناظر الطبيعية ، ولم يكتف بالوصف الدقيق فقط بل أضاف من عنده التعبير عن الجمال واستخدام الضوء ، فخرجت لوحاته تعبر عن جمال الريف المصرى ، وروعة الطبيعة ، وفتنة الفلاحات ، وهو فى هذه المرحلة يحاكى الجمال ويبرزه ، ويدفع فى المشاهد حب الحياة والتمسك بالأمل ، تماما كما كان يفعل الفنان الفرنسى « أوجست رنوار ١٨٤١ - ١٩١٩ » غير أن الفنان الكبير لم يرض عن نفسه فى هذه المرحلة ، لأنه لم يصل إلى أسلوب خاص به هو ، فهو لا يريد أن يكون مجرد فنان تشكيلى كغيره ، بل أراد أن يكون له أسلوبه الخاص الذى يتميز به ، واستفاد بكل المدارس الفنية الأخرى التى قرأ عنها وشهد أعمالها . ثم تحول فجأة إلى المدرسة التجريدية ، ولهذا التحول حكاية يحكيها لنا الناقد صبحى الشارونى فى كتابه عن صلاح طاهر ، سلسلة وصف مصر المعاصرة من خلال الفنون التشكيلية ، يقول صبحى الشارونى :

« تكاتفت العوامل الذاتية مع العوامل الاجتماعية مع العوامل الاقتصادية ، لتدفع صلاح طاهر إلى إجراء تغيير حاسم فى أسلوبه الفنى ، فتحول إلى التجريدية وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، وكان التحول مفاجئا بالنسبة لمتابعيه ، وبخاصة أنه اتخذ شكلا مسرحيا عندما وقف بين عدد من الفنانين وقال بأسلوب التحدى : « ما حكاية هؤلاء التجريديين ؟ أيحسبون أنهم يفعلون شيئا خارقا ؟ إننى أستطيع أن أتفوق عليهم » ويومها أقسم أن يرسم لوحاته بالأسلوب التجريدى .

ومع أنه اقتحم التجريد كنوع من التحدى ، وإثبات مقدرته الفنية العالية ، إلا أنه ارتاح إلى هذا الفن ، الذى يتيح للفنان الحرية الكاملة فى الخلق والابتكار وعدم التقيد ، ومتعة إثبات الذات ، فاستمر يمارس الفن التجريدى حتى الآن ، وأضاف عليه التعبيرية ، أى أنه يمثل الآن مدرسة التجريدية التعبيرية .

والفن التجريدى ، كما تشرحه لنا فهيمة أمين فى قاموس مشاهير الفنانين التشكليين ، هو اتجاه حديث فى التصوير والنحت فى القرن العشرين ، لا يعنى بتمثيل الأشياء كما هى فى الطبيعة ، ولكنه يستخلص عناصر المرئيات ليصور أو ينحت منها شيئا جديدا لا يكاد يمت بصلة إلى الأصل الواقعى ، وقد انتشر هذا المذهب بعد الحرب العالمية الأولى فى كل من أمريكا ، وفرنسا وألمانيا وهولندا ، كما انتقل الاتجاه التجريدىأيضا بعد ذلك إلى ميادين العمارة والصناعة .

والفنان صلاح طاهر يمثل التجريدية التعبيرية ، التى تتفق وقواعد الموسيقى ، وبناء السيمفونية ، ومع ذلك فهو يحن من حين إلى آخر إلى رسم الوجوه الشخصية « البورتريهات » ، ولا يجد فى هذا تناقضا مع مدرسته الجديدة ، بل هذا إبداع ، وذاك إبداع أيضا ، وبخاصة أنه يُطلب

نه كثيرا رسم الوجوه الشخصية ، ومع رفضه إلا أنه يقبل أحيانا مضطراً .

وقد أنتج حتى الآن حوالى عشرة آلاف لوحة على الأقل تمثل المدارس فنية المختلفة التى مارسها ، كما رسم وجوه شخصيات كثيرة منها « عقاد ، توفيق الحكيم ، أم كلثوم ، محمد حسنين هيكل ، كمال الملاخ ، رئيس الراحل أنور السادات وزوجته السيدة جيهان والشاعر فاروق جويدة غيرهم » . كذلك استخدم فنه فى التعبير عن الجوانب الإنسانية المهمة ثل حرية الإنسان وتمجيد العمل ، وضرورة البناء ، وأوضح النماذج هى تى بدأها عام ١٩٦٣ عندما قام برحلته إلى أسوان ، أثناء بناء السد عالى ، وشاهد سجل النوبة قبل أن تغطيها مياه السد ، والأعمال الإنشائية كبيرة التى قام بها العمال والفنيون ، وترجم ذلك إلى لوحات رائعة ، منها وحة تصور الحمالين وعلى أكتافهم كتلة خشبية ضخمة يتعاونون على ملها فى همة ونشاط ، وأخرى تصور فلاحتين منحنيتين فى حقل كبير يجمعان ثمار الأرض فى جدية وحب للعمل ، كما أن لوحاته التى تصور تشكيلات إنسانية » هى تعبير عن مدى حبه للناس جميعا ، وبخاصة هل بلده ، فتبدو الأشخاص فى شكل تكتلات قوية مهما بلغ عددهم من كثرة ، وهم يتداخلون ويتماسكون كما يحدث فى المجتمع ، أما لابسهم فهى مستوحاة من الجلباب أو الملاية اللف حتى يتحقق فيها المذاق لمحلى .

وأسأل الفنان الكبير صلاح طاهر كيف يمكن نشر الأعمال التشكيلية حتى ننشر الوعى بها ، وحتى يستطيع كل هاو ، وكل متذوق أن يقتنيها ى بيته ؟

الواقع أن هذه مسئولية الدولة مع أصحاب رؤوس الأموال فى مصر ، ففى أوروبا وأمريكا ، وكل العالم المتحضر ، يطبعون لوحات طبق الأصل

من اللوحات الأصلية ، وتباع رخيصة ، ويمكن لكل الناس الحصول عليها ، كما تجد صورة « الموناليزا » الآن فى الأسواق وغيرها ، ويمكن طبع نسخ كثيرة من العمل الفنى ، وبأحجام كبيرة أيضا ورخيصة الثمن ، وهذه الطريقة يمكن أن تساعد فى نشر الوعى والتذوق الفنى عند الناس وزيادة ثقافتهم ، وعندما تنشر هذه الأعمال فى كل مكان ، وفى كل بيت ، سيصبح من السهل على من يريد اقتناء العمل الفنى الأصلى أن يقتنيه ، مادام محبا للفن التشكيلى ، وقادرا ماديا على ذلك .

وماذا تتمنى للإنسان المصرى ؟

سأحكى لك قصة بسيطة حدثت لى سنة ١٩٦٢ عندما كنت مديرا للأوبرا المصرية ، ودعتنى أوبرا فيينا لزيارتها لمدة شهر ، أوبرا فيينا هذه أعظم أوبرات العالم ، وعندما وصلت إلى الفندق فى فيينا جاء الحمال « الشيال » ليحمل حقائبى إلى الغرفة ، وفوجئت به يسلى نفسه بالغناء ، غناء الأغنية أو النشيد الذى وضعه بيتهوفن فى سيمفونيته التاسعة والأخيرة ، والحقيقة أننى ذهلت من الإعجاب والسعادة بهذا الرجل البسيط الذى يتغنى بنشيد الفرح للشاعر شيللر ، والذى ضمنه بيتهوفن فى سيمفونيته ، وقلت لنفسى ، إذا كان هذا الرجل البسيط « الشيال » على هذا القدر من الثقافة والتذوق الفنى فما بالك ببقية الشعب المتعلم والمثقف ؟

* ويستطرد الفنان صلاح طاهر :

الحقيقة أننى أتمنى أن أرى كل مصرى وقد تذوق الفن ، واستمع إلى الموسيقى الراقية والسيمفونية ، واقتنى لوحات تشكيلية ، وتصادق مع الكتاب ، وهذب من معاملته للآخرين ، وذهب إلى عمله بجدية

وحماس ، واحترم الحيوان والنبات ، عندئذ سأطمئن على أبناء بلدى ، ونحن فى الطريق إلى ذلك .

ما رأى فناننا الكبير فى المناخ الثقافى الآن ؟

· أعتقد أن المناخ الثقافى يحتاج إلى شىء من الاهتمام ، فمثلا فى فيينا عرفت أنهم يدرسون النوتة الموسيقية للأطفال فى المدارس الابتدائية ، ونحن كان عندنا حصص للموسيقى فى المدارس ، فلماذا ألغيت ؟ أعرف أنها موجودة فى بعض المدارس الخاصة ، لكنها لابد أن تكون فى كل مدرسة ، مع مدرس أو مدرسة متخصصة ، فالموسيقى وكل الفنون ضرورية لبناء الإنسان ، وبخاصة منذ الطفولة والنشأة الأولى ، والثقافة هى التى تصنع الحضارة ، وليست هناك حضارة بلا ثقافة ، ولابد من استغلال أجهزة الإعلام الاستغلال الأمثل لنشر الثقافة والوعى الفنى ، والإذاعة تسير فى اتجاه صحيح فى هذا المجال .

أما التليفزيون فيمكن له أن يقدم برامج ثقافية على مستوى رفيع جدا وكل يوم ، برنامج ثقافى أو عن تذوق الفنون ، أو وحدتها ، وهذا لن يكلف الشىء الكثير ، بل سيكون أرخص من الأعمال الهابطة الأخرى ، وبذلك يستطيع التليفزيون أن يؤدى واجبه ، وهو يلعب دوره الريادى فى التنوير والحضارة .

والفنان الكبير صلاح طاهر شاب فى السابعة والثمانين من عمره ، فهو يعيش فى بيته بين مكتبة قوامها أربعين ألف كتاب ، وحوالى ألف لوحة من لوحاته ، ويذهب إلى مكتبه صباحا فى جريدة الأهرام ، ومساء يذهب إلى مرسمه فى الزمالك يبدع حتى ساعة متأخرة من الليل ، هذا غير الصالونات

الأدبية التى يشترك فيها ، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية التى يساهم فيها ليدعو الناس إلى تذوق الفن ، وضرورة الثقافة حتى نستطيع أن نلحق بالتطور وحضارة القرن الحادى والعشرين[1] أمتعه الله بالصحة والعمر المديد والعطاء الموفور .



---

* كان من الطبيعى أن يحصل الفنان الكبير صلاح طاهر على جوائز عديدة ، منها جائزة الدولة التشجيعية ثم التقديرية فى الفن ، وجائزة (جوجنهايم) العالمية .

أهم مراجع الكتاب

لا يمكن ذكر كل مراجع الكتاب لأنها تصل إلى المئات ، وهنا أذكر أهم المراجع للمهتمين بذلك :

* تاريخ الفكر المصرى الحديث - تأليف دكتور لويس عوض - دار الهلال .

* تخليص الإبريز فى تلخيص باريس - تأليف رفاعة الطهطاوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* الطهطاوى - رواية حسن محسب - مكتبة غريب .

* جمال الدين الأفغانى - تأليف دكتور على شلش - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* هؤلاء الرجال من مصر - لمعى المطيعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* محمد عبده عبقرى الإصلاح والتعليم - تأليف عباس محمود العقاد .

* مذكرات الشيخ الإمام محمد عبده .

* المرشد الأمين للبنات والبنين - تأليف رفاعة رافع الطهطاوى .

* ساعات مع الأحرار - تأليف أحمد قاسم جودة .

* رسالة التوحيد - الشيخ محمد عبده .

* المسلمون والإسلام .

* الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

* أفكار ضد الرصاص - تأليف محمود عوض - دار المعارف .

* تحرير المرأة - تأليف قاسم أمين .

* المرأة الجديدة - تأليف قاسم أمين .

* مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة - هدى شعراوى - دار الهلال .

* هدى شعراوى وعصر التنوير - تأليف د. نبيل راغب .

* نساء فوق القمة - تأليف أحمد زكى عبد الحليم .

* مصطفى النحاس ، دراسة فى الزعامة السياسية المصرية - تأليف الدكتور علاء الحديدى .

* ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢- تأليف دكتور محمد أنيس ودكتور رجب حراز .

* قصة حياتى - تأليف أحمد لطفى السيد .

* سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية - تأليف الدكتور عبد الخالق لاشين .

* سعد زغلول - تأليف عباس محمود العقاد .

* زعماء الاصلاح فى العصر الحديث - تأليف أحمد أمين - مكتبة النهضة سنة ١٩٤٩ .

* مجتمع جديد أو الكارثة - تأليف دكتور زكى نجيب محمود - دار الشروق ١٩٨٣ .

* السيد درويش فى ميلاده المئوى - تأليف عبد الحميد توفيق زكى - دار المعارف .

* مذكرات نجيب الريحانى .

* عباقرة رحلوا زهورا - تأليف فايز فرح - دار الشعب .

* مذكرات عبد العزيز باشا فهمى .

* يوميات - تأليف عباس محمود العقاد - الجزء الثالث .

* أدباء معاصرون - تأليف رجاء النقاش - كتاب الهلال .

* مصطفى كامل - تأليف فتحى رضوان .

* لطفى السيد فيلسوف أنقد أمة - تأليف د. عبد العزيز شرف .

* رجال عرفتهم - تأليف عباس محمود العقاد .

* فى صالون العقاد ، كانت أيام - تأليف أنيس منصور .

مؤلفات كمال الملاخ :

* قاهر الظلام .

* صالون من ورق .

* النار والبحر .

* الحكيم بخيلا .

* حكايات صيف .

* خمسون سنة من الفن .

* هؤلاء دخلوا التاريخ .

* أغا خان .

* صقر قريش .

* المليونير الصعلوك بيكاسو وكتب أخرى ذكرت فى متن الموضوع .

* صلاح طاهر - تأليف صبحى الشارونى ، سلسة وصف مصر المعاصرة من خلال الفنون التشكيلية .

* قاموس مشاهير الفنانين التشكيليين - تأليف فهيمة أمين .

* لقاءات وحوارات مع الأثرى كمال الملاخ والفنان صلاح طاهر طوال أكثر من عشرين سنة .

* وثائق جديدة فى حياة مصطفى كامل - تأليف د. محمد أنيس .

* الملفات الخاصة بكل شخصية من شخصيات الكتاب الموجودة فى أرشيف جريدة الأهرام .

كتب صدرت للمؤلف

* عباقرة رحلوا زهورا .... (دار الشعب)
* أحـاديث فى الأتوبيس .... (دار الشعب)
* عباقرة هزموا اليأس .... (دار الثقـافة)
* القراءة أنفع هواية .... (مكتبة المحبة)
* رحلات وحكايات .... (دار المعارف)
* عظماء قهروا اليأس .... (دار الثقافة)
* العمل مفتاح النجاح .... (مكتبة المحبة)
* مذكرات مسافر .... (دار الثقافة)
* أوجست رنوار – سلسلة عظماء عاشوا بالأمل . (دار المعارف)
* شخصيات مصرية وأفكار عصرية .... (دار الشعب)

تحت الطبع :

* عباقرة فى الذاكرة .
* شقاوة العباقرة .
* رحلاتى .

الفهـــرس

صفحة



مؤلف الكتاب

- فايز فرح .. مقدم برامج أول بإذاعة الشباب والرياضة .
- عضو نقابة الصحفيين .
- عضو إتحاد الكتاب والأدباء .
- عضو جمعية كتاب البيئة والتنمية .
- عضو جماعة حقوق الإنسان بالقاهرة .
- زار ١٨ دولة بدعوات من حكوماتها وكتابها ونقابات الصحفيين والكتاب فيها .
- قدم للمكتبة العربية عشرة كتب فى أدب الرحلات والتراجم والنقد الإجتماعى وتأملات للشباب .